دور السودان في مجتمعي مصر والحجاز في العصر المملوكي ٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م

د/ محمد جابر الله على
مدرس التاريخ الإسلامي
كلية الدراسات الأفريقية العليا- جامعة القاهرة

تمهيد

يهدف هذه البحث إلى إلقاء الضوء على دور السودان في مجتمعي مصر والحجاز خلال العصر المملوكي. وبداية يُقصد بالسودان في هذا البحث النوبيون والأحباش على السواء، الذين عاشوا في أوساط المجتمعين. كما ينطلق البحث من حقيقة مفادها العلاقة الخاصة التي ربطت مصر ببلاد سودان وادي النيل وبلاد الحبشة، وكيف أدت تلك العلاقة الخاصة إلى وجود كثيف للسودان في مصر؟ بل وتبوأ بعضهم مكانة مرموقة في مجتمعي مصر والحجاز. وسوف يركز البحث كما هو مبين في العنوان على الأدور السياسية والإدارية والعسكرية والاجتماعية في مجتمعي مصر والحجاز.

فقد كان للسودان دورٌ كبير في المجتمعين، اختلفت أدوارهم حسب طبيعة وضعهم داخل المجتمع. وقبل الشروع في رصد ذلك الدور نوضح أن مناط هذا الدور كان مرتبطًا بالاهتمام الكبير من جانب حكام مصر بالحصول على العبيد والجوارى سواء من النوبيين أم من الأحباش، كما لم يكن العصر المملوكي هو بداية ذلك الاهتمام، وإنما ارتبط ذلك منذ دخلت مصر في حوزة الدولة الإسلامية بمعاهدة "البقط"، التي نصت في أحد نصوصها على حصول حكام مصر على عدد من العبيد والجوارى من بلاد النوبة كل عام.

الأمر الآخر الذي نود أن نؤكد عليه هو أن من عاشوا في مجتمعي مصر والحجاز من السودان ليس كلهم من العبيد أو الجوارى، فهناك الكثير من الأحرار السودان الذين عاشوا في مصر أو في الحرمين وذاع صيتهم، ولكن من شغل المناصب السياسية والإدارية أو قام بأدوار أمنية وعسكرية، ومن قام بأدوار اجتماعية من السودان داخل المجتمع كان جلهم ممن أُعتقوا من العبيد والجواري.

أما عن **الدراسات السابقة**، فقد سبق هذا البحث عدة أبحاث تتناول العبيد والجواري منها دراسة آسيا بنت سليمان النقلي(٢٠٠٧)، الطواشية ودورهم في دولة سلاطين المماليك، ع٢٢، المجلة العلمية لكلية الآداب، جامعة أسيوط. وقد تناولت الباحثة في بحثها الطواشية بصفة عامة السودان وغيرهم ممن خدموا في الدولة المملوكية، غير أنها تركت العديد من السودان لم تأت على ذكرهم. كما أنها تناولت الجوانب السياسية دون الجانب الاجتماعي، والأدوار المتعددة التي قام بها السودان في المجتمع لمصري آنذاك. وهناك فارق آخر بين هذا

البحث والبحث السالف الذكر، هو أن الباحثة لم تتناول في بحثها دور النساء السودانيات داخل المجتمع المصري إبان فترة المماليك.

دراسة سعود محمد العصفور(٢٠٠٨)، الوظائف التي تقلدها الخدم في العصر المملوكي، مجلة التاريخ والمستقبل، جامعة المنيا. وكما هو واضح من عنوان البحث أنه يتناول الوظائف التي تقلدها الخدم، كل الخدم البيضان والسودان على السواء في العصر المملوكي. أما هذا البحث، فيتناول الأدوار التي قدمها السودان فقط في المجتمع المصري من خلال الوظائف التي تقلدوها سواء على الصعيد السياسيى أم الإداري، فضلاً عن الدور الاجتماعي للسودان في المجتمع المصري؛ إذ لم يعيشوا بمعزل عن بقية فئات المجتمع. كما أن هذا البحث أضاف جانبًا آخر، ألا وهو الذهنية المصرية حول السودان وبلادهم التي أتوا منها.

دراسة على السيد على(٢٠١٤)، بحوث في التاريخ الاجتماعي من العصر المملوكي "الرعاية الاجتماعية للجواري والعبيد السود في العصر المملوكي"، ط١، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ص٢٣٣-٢٥٩. تناول هذا البحث الرعاية الاجتماعية التي كفلها المجتمع للجواري والعبيد، سواء كانت تلك الرعاية في حال كونهم عبيد أم بعد أن تحرروا من العبودية. وعلى هذا النحو، فهذا البحث يتناول الجانب الآخر من قضية السودان في المجتمع المصري، وهو ما قدمه لهم المجتمع من رعاية، ليأتي هذا البحث هذا ويوضح ما قدمه السودان في نظير ذلك لمجتمعي مصر والحجاز خلال العصر المملوكي.

وتأتي أهمية هذا البحث من أن غالبية السودان الذين وفدوا إلى مصر كانوا من بين العبيد، ومن ثَم لا يمكن بأى حال من الأحوال إغفال دور الخدم في العصر المملوكي عند الحديث عن المجتمع المصري خلال تلك الفترة، وذلك باعتبارهم أحد أهم عناصر المجتمع الفاعلة، واللافت للنظر هو تنوع الأدوار التي لعبها الخدم من خلال الوظائف والمناصب التي شغلوها[١].

ولكن قبل الخوض في تلك الأدوار التي لعبها السودان في مصر والحجاز خلال العصر المملوكي كان لابد من معرفة ذهنية المصريين حول تلك البلاد التي أتى منها السودان.

أولًا- النوبة والحبشة في الذهنية المصرية.

تشكلت الذهنية المصرية حول المناطق المثاقبة لحدود مصر الجنوبية عبر فترات زمنية طويلة، بداية من العصور الفرعونية، ثم من خلال الموروث الجغرافي اليوناني، فقد ترك الفراعنة واليونان إرثًا كبيرًا حول صورة الأفريقي أسود اللون. ولما جاء الجغرافيون المسلمون لم يغيروا كثيرًا من صورة السودان في الذهنية المصرية؛ حيث اعتمدوا فيما كتبوه عن أفريقيا جنوب الصحراء على ما ورد في كتابات جغرافيّ اليونان، أمثال بطليموس وجالينوس، وهى كتابات انتقصت كثيرًا من شأن الأفارقة السود، وعكست في كثير من الجوانب صورة مشوهة عنهم(٢).

أما خلال العصور الوسطى فقد كان للمناطق التي تقع إلى الجنوب من مصر في الذهنية المصرية صورة واضحة تمام الوضوح، وبخاصة بعد انتشار النصرانية وظهور الكثير من الخلافات المذهبية بين النصارى وبعضهم البعض، عند هذا الحد صارت بلاد النوبة تمثل ملاذًا آمنًا للمضطهدين المصريين، الذين نجحوا في الوصول إليها، ففتحوا آفاقًا جديدة للنصرانية هناك، وإلا فكيف نفسر الانتشار السريع للنصرانية في بلاد النوبة، عندما دخلت تلك المناطق في اهتمامات أباطرة بيزنطة فقصدوها بالمنصرين(٣).

وتفسير ذلك أن تلك الجهات شهدت جهودًا غير رسمية على أيدي المصريين الذين فروا إليها من اضطهاد الرومان، فوجدوا فيها الملاذ الأمن، وأضحت هذه هي صورتها في ذهنية المصريين آنذاك. فلما بدأ الاهتمام الرسمي بنشر النصرانية، ووقع التنافس بين المذهبين الملكاني والأرثوذكسي، عندها حقق المذهب الأرثوكسي المصري انتشارًا واسعًا بين النوبيين(٤).

ويرى الباحث أن هذا يؤكد على أثر الجهود الفردية التي قام بها الرهبان والتجار المصريون في تلك الجهات من قبل أن تبدأ الجهود الرسمية للدولة البيزنطية في نشر النصرانية في تلك الجهات.

ولعل مرد ذلك هي فترات الاضطهاد الشديدة التي عاشها المصريون خلال القرنين الثاني والثالث الميلاديين، وفرار العديد منهم نحو تلك الجهات، وكذلك جهود التجار المصريين الذين ارتادوا تلك الجهات للحصول على منتجاتها المميزة(٥).

والسؤال الآن كيف تشكلت ذهنية المجتمع العربي الإسلامي الجديد في مصر حول تلك الجهات؟

بداية كان لدي العرب صورة ذهنية واضحة عن بلاد البُجة والنوبة والحبشة؛ فعلاقة العرب بتلك الجهات وغيرها من المناطق في أفريقيا قديمة لا يتسع بنا المقام لسردها(٦)، ويكفي هنا أن نشير فقط إلى قضية واحدة تؤكد تلك الروابط، ألا وهي ادعاء النسب العربي لدي القبائل الأفريقية، ولاسيما في تلك الجهات موضع البحث(٧).

أما في جزيرة العرب، فلم يكن الرجل الأفريقي الأسود بغريب عن بلاد العرب، كما كان لهم سبق في الإسلام، وقد تركت أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم أثرًا إيجابيًا كبيرًا في نفوس المسلمين عن تلك الجهات وأهلها، وكتب غير واحد من العلماء المسلمين عن السودان والحبش، وما لهم من سبق وفضل(٨)، وكثيرًا ما تغنى بهم شعراء العرب في مختلف ألوان الشعر(٩)، كما تبادل الطرفان الهجرات والغزوات على ضفتي البحر الأحمر، والوجود البشري لكل طرف منهم في أرض الطرف الآخر، وما نتج عن ذلك من اندماج بينهما(١٠).

أما قضيتنا الأساسية هي الصورة الذهنية لبلاد البُجة والنوبة والحبشة في الذهنية المصرية فيما بعد الفتح الإسلامي لمصر؛ إذ بدأت الصورة الذهنية لتلك الجهات وما تربطها بمصر من علاقات تتضح شيئًا فشيئًا لدي المجتمع الجديد الذي بدأ يتشكل في مصر، فقد أشار أهل الرأي في مصر على المقوقس حين علموا بنزول المسلمين أرض مصر بالثبات والقتال، وأن يرسل إلى أطراف مملكته يطلب النجدة من ملوك البُجة والبربر(١١)، فلما نزل عمرو بن العاص عين شمس وجد فيها جماعة من النُوب يعيشون مع أهل مصر(١٢). غير أن المصادر لا تذكر صراحة إن كانوا من المحاربين أم لا.

ومن الراجح أن جانبًا من النوبيين الذين في أرض مصر كانوا من المحاربين، وقد اتضح ذلك عندما بدأ التفاوض بين عمرو بن العاص والمقوقس حاكم مصر آنذاك؛ إذ نص الاتفاق صراحة على الروم والنوبيين، إذا ما اختاروا العيش في مصر فلهم ما للمصريين وعليهم ما على المصريين، ومن اختار منهم غير ذلك فهو آمن حتى يخرج من أرض مصر(١٣). فالجمع بين الروم وهم قوام الجيش البيزنطي في مصر، والنوبيين الذين استنجد بهم المقوقس يعني أنهم قاتلوا إلى جانب الروم ضد المسلمين، وقد أراد المقوقس أن يؤمنهم على أنفسهم كما يؤمن بني جنسه من الروم.

ولكن ذلك الاتفاق لم يتم لغياب المقوقس عن المشهد، وظهور ولي عهده أرسطوليس الذي عزم على قتال المسلمين، وهدد بقدوم جيوش كبيرة من البجة والنوبة لمساندته، وكاتب

بالفعل ملوك النوبة والبجة لنصرته[١٤] فتأكدت الصورة الذهنية لدي المسلمين حول تلك البلاد على أنها قد تشكل خطرًا على الوجود الإسلامي بأرض مصر مستقبلًا. ولعل مسارعة عمرو بن العاص في إنفاذ حملته الأولى إلى أرض النوبة بعد تمام فتح مصـــر كانت نتيجة لما دار بين الطرفين من حديث حول نصرة النوبة والبجة للروم في مصر.

ولكنَّ الصـورة الذهنية لدي المسلمين في مصـر عن تلك الجهات لم تكن مبنية حتى الآن عن احتكاك حقيقي بأهل النوبة أو غيرهم من الســـودان، ثم كانت الحملة الأولي التي ســـيرها عمرو بن العاص بقيادة نافع بن عبد القيس الفهري ســـنة ٢١هـ/٦٤١م، ومع هذا الحملة ظهرت صورة جديدة للنوبيين في أذهان المسلمين، مؤداها أنهم محاربين أشداء، ورماة جيدين للسهام، فأطلق عليهم المسلمون رماة الحدق[١٥]، ورغم مبالغة المصادر في تلك الرواية إلا أنها دليل واضح على مهارتهم الحربية التي حسمت أمر الغزوة. إن تلك القوة التي أظهرها النوبيون في قتال المسلمين دفعت عمرو بن العاص لإرسال المزيد من السرايا نحو بلاد النوبة حتى تم صرفه عن ولاية مصر سنة ٢٥هـ/٦٤٥م؛ وذلك بغية رسم صورة أكثر وضوحًا عن بلاد النوبة وأهلها[١٦]. وبالتالى ترك عمرو ولاية مصـر وصـورة النوبيين في أذهان المسـلمين أنهم ذوي بأس وشدة في القتال.

ولكنَّ تلك الصورة تغيرت بعد نحو عشر سنوات؛ إذ أعد والى مصر عبد الله بن سعد حملة جديدة إلى بلاد النوبة ســـنة ٣١هـ/٦٥٢م، تمكنت من التوغل في بلاد النوبة حتى وصـلت العاصـمة دنقلة(Dongola)، ورغم التفوق المصـري عسـكريًا إلا أن النوبيين أظهروا مقاومة شديدة كما في المرة الأولى، وفي نهاية الأمر جنح الطرفان إلى عقد الصلح، ومع هذا الصـلح برزت للذهنية المصـرية صـورة جديدة عن تلك الجهات، فقد جسـد البقط تلك البلاد كمورد للعبيد السود إلى الديار المصرية حتى اكتظ بهم المجتمع في مصر والحجاز[١٧].

وهنا يجب أن نفرق بين البُجة والنوبة، وصورتيهما في الذهنية المصرية الجديد، فالبُجة مع كثرة اعتداءاتهم على الحدود الجنوبية لمصر، كانت الصورة الذهنية عنهم أنهم أهل حرب وتمرد، فقصدتهم الدولة الإسلامية بعدة حملات[١٨]. وأما النوبة فتغيرت الصورة الذهنية عنهم بعد اتفاق البقط[١٩]، الذي مثّل على حد وصف مصطفي مسعد نمطًا فريدًا من المعاهدات، فقد حققت مصر من خلاله اتصالًا مثمرًا مع عمقها الاستراتيجي في الجنوب، كما كان لهذا

التواصل تبعاته الاقتصادية والاجتماعية والثقافية؛ ولذا لم يهتم المسلمون بدخول بلاد النوبة عسكريًا، بل تمسكوا باتفاق البقط إلى حد بعيد(٢٠).

ظلت صورة بلاد البُجة والنوبة في الذهنية المصرية على النحو سالف الذكر حتى تم إسقاط العرب الذين كانوا من صميم النسيج المصري آنذاك من ديوان العطاء سنة ٢١٨هـ/٨٣٣م(٢١)، مما استوجب ثورتهم في وجه ولاة مصر. ولمّا لم تفلح ثوراتهم المتكررة كان لزامًا عليهم البحث عن ملاذٍ آمنٍ، فكان خيارهم الأول الهجرة(٢٢) صوب الجنوب إلى بلاد البُجة والنوبة(٢٣)، فتغيرت الصورة الذهنية عن تلك البلاد؛ إذ صارت تمثل الملاذ الآمن بعيدًا عن سلطة، وهي في ذات الوقت أماكن لتحقيق الثراء بعد اكتشاف معدن الذهب(٢٤). ومورِدًا تجاريًا لكثير من السلع ذات المردود المادي الكبير(٢٥)، فتكاثر عليها العرب حتى غدت المنطقة المحصورة بين أسوان والشلال الثاني منطقة نفوذ عربية، وفقًا للأدلة الآثارية كشواهد القبور التي صارت تحمل أسماء وتواريخ عربية إسلامية(٢٦).

وعليه فقد عادت تلك الجهات إلى سيرتها الأولى ملاذًا آمنًا للفارين والهاربين، وكثيرًا ما تحركت قوافل أولئك الفارين نحو الجنوب مجتازة الحدود بين مصر والنوبة في هدوء شديد لم تلتفت إليهم الأنظار إلا بعد زمن طويل من وجودهم(٢٧).

ثم تغيرت الصورة الذهنية للمصريين حول تلك البلاد نهائيًا خلال العصر المملوكي الذي شهد فتحًا إسلاميًا لتلك البلاد بداية من عهد السلطان الظاهر بيبرس(٦٥٩-٦٧٦هـ/١٢٦٠-١٢٧٧م)، فانتشر فيها الإسلام، وتهاوت ممالكها النصرانية، فأضحى المجال مفتوحًا على مصراعيه أمام القبائل العربية للعيش في تلك الجهات حتي غدت جزءًا أصيلًا امتدادًا طبيعيًا للدولة الإسلامية(٢٨).

أما الحبشة فقد مثلت في الذهنية المصرية أهم مملكة نصرانية تقع إلى الجنوب من حدود مصر، وتربطها علاقات قوية بمصر منذ العصور القديمة، وازدادت أواصر تلك العلاقة منذ ظهرت النصرانية وانتشرت في البلدين، وكذلك ارتباط البلدين بمذهب ديني واحد تتزعمه مصر وتتبعه الحبشة(٢٩). فأضحت الحبشة في الذهنية المصرية تابعة لمصر من هذا المنطلق، وأصبحت العلاقة الدينية هي المحور الرئيس لكافة العلاقات القائمة بين مصر وجيرانها الجنوبيين. ففي مصر الكنيسة الأم مصدر المد الروحي(٣٠)، وفيها نشأ المذهب الديني الذي اتبعته الكنائس الناشئة في الحبشة وغيرها(٣١).

وتشكلت الذهنية المصرية خلال العصر الإسلامي حول الحبشة من عدة صور. كان أولها هم العبيد السود الخصيان الذين عرفوا في المجتمع المصري باسم الطواشية، والذين صار لهم دور كبير في المجتمع المصري، فأصبحت الحبشة تمثل سوق كبير أمد مصر بأفضل العبيد الذين عرفتهم مصر(٣٢).

أما الصورة الأكثر إيجابية التي انطبعت في الذهنية المصرية حول بلاد الحبشة، فقد برزت مع توافد أسر حبشية لتلقي العلم في الديار المصرية(٣٣)، وكذلك في الحرمين الشرفين، بل ونبوغ عددًا منهم رجالًا ونساءً، حتي صاروا أعلامًا في مختلف فنون العلم(٣٤).

وقد ساهم الجبرتية الذين عاشوا في كنف المجتمع المصري في رسم صورة ذهنية سلبية عن الحبشة، عبر نقل أخبار الإعتداءات الحبشية المتكررة على مسلمي الزيلع، ولأن ذلك العصر شهد أشد الهجمات الصليبية ضراوة على المشرق الإسلامي، تأكد في الذهنية المصرية مشاركة الأحباش في تلك الحرب ضد المسلمين باضطهادهم لمسلمي الزيلع الذين اتجهوا بأنظارهم شطر مصر(٣٥).

ومن وجهة أخرى كان للجهات التي تجاور الحدود الجنوبية لمصر صورتان في الذهنية المصرية، والصورتان مصدرهما واحد هو نهر النيل. أما الصورة الأولى فكانت صورة إيجابية تبرز عند وفاء النيل وتمام زيادته، فتكون تلك الجهات مصدرًا للنمو والرخاء في مصر. وأما الصورة الأخرى فكانت سلبية؛ وذلك عندما يقصر النيل عن الوفاء، فتكون تلك الجهات سببًا في القحط والأزمات التي تضرب المجتمع المصري(٣٦).

ثانيًا- دور السودان السياسي في مصر والحجاز في العصر المملوكي.

كان للسودان دور سياسي كبير في مجتمعي مصر والحجاز، ويشتمل هذا الدور كذلك على مساهمتهم الإدارية والعسكرية.

وبداية ذكر القلقشندى أن الخدام الخصيان المعينون لخدمة بيوت السلطان وحريمه في العصر المملوكي عرفوا باسم الطواشية، ولهم ألقاب تخصهم فيقولون في هلال ومرجان "بدر الدين" وفي جوهر "صفي الدين" وفي مثقال "سابق الدين"، وفي لؤلؤ "بدر الدين"، كما يحمل الطواشية أسماء أخرى مثل مختص ومرشد وافتخار ومختار، وقد يطلق عليهم ألقاب أخرى حسب ما تقضيه الوظائف التي يشغلونها(٣٧).

وفيما يلى سوف يقتصر الحديث عن الطواشية السودان ودورهم في المجتمع من خلال مشاركتهم الفاعلة في تولي الوظائف والمناصب المختلفة خلال العصر المملوكي، فيشير السخاوى إلى الدور الكبير الذي لعبه السودان في المجتمع المصري، وقد ذكر الكثير من الأشخاص ذوى أصول حبشية ظهروا في المجتمع وتقلدوا الكثير من المناصب والوظائف السيادية والخدمية[٣٨] خلال العصر المملوكي[٣٩].

غير أن الأمر لا يقتصر على الأحباش دون غيرهم من السودان؛ إذ تشير سندات شراء العبيد في الحرم الشريف إلى وجود عدد كبير من أجناس العبيد السود منهم على سبيل المثال الحبشي(Abyssinian) سالف الذكر والتكروري(Takruri) والنوبي(Nubian) والزغاوي(Zagawi) والبجا(Beja) والزنجي(Zangi)[٤٠]، فالأمر إذن لا يتوقف في مجتمعي مصر والحجاز عند الأحباش فحسب.

ولقد بدأ دور السودان في مجتمعي مصر والحجاز خلال العصر المملوكي منذ بداية الدولة المملوكيه، فيذكر ابن تغرى بردى المتوفي(٨٧٤هـ/١٤٧٠م) الأمير بدر الدين الصوابي الحبشي كأحد كبار المماليك الذين ظهروا في أواخر عهد الدولة الأيوبية، ويذكر أنه حارب جنبًا إلى جنب مع الظاهر بيبرس، غير أن الظروف اضطرته للفرار إلى بلاد الشام، وقد كان صالحًا خيرًا، تولى منصب أمير مائة مقدم ألف[٤١] أكثر من أربعين سنة، كما ولي إمرة الحج بدمشق أكثر من مرة، توفي سنة٦٩٨هـ/١٢٩٨م، ودفن في تربته التي أعدها لنفسه بجبل قاسيون[٤٢].

ويذكر ابن عبد الظاهر المتوفي(٦٩٢هـ/١٢٩٢م) أن من بين الأمراء الذين ندبهم السلطان الظاهر بيبرس(٦٥٩-٦٧٦هـ/١٢٦٠-١٢٧٧م) لفتح وعمارة قلعة البيرة[٤٣] الأمير سيف الدين بلبان الحبشي[٤٤]، وفي عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون(٦٩٣-٧٤٢هـ/١٢٩٣-١٣٤١م) صار سيف الدين هذا من أكابر الأمراء في الدولة المملوكية، وقد شارك في العديد من الحروب حيث أرسل الناصر محمد أربعة آلاف فارس من العسكر المصري إلى بلاد الشام٦٩٨هـ/١٢٩٨م، وكان على رأس كل ألف أمير، وكان الأمير سيف الدين هو المقدم على الجميع[٤٥].

على هذا النحو برز دور السودان في مصر خلال العصر المملوكي، ويري الباحث أن السودان في مصر أخذوا في استعادت الدور الذي فقدوه خلال عصر بني أيوب؛ حيث لم

يظهر لهم دور خلال تلك الفترة منذ أوقع الملك الناصر صلاح الدين بهم في أعقاب محاولتهم الانقلاب على صلاح الدين ومحاولتهم استعادت الحكم الفاطمي(٤٦). ولكنَّ الأمور تبدلت خلال عصر المماليك، فبدأ السودان استعادت جانب كبير من دورهم السابق في البلاط السلطاني، وفي أوساط المجتمع المصري. وفيما يلي نعرض لأهم الوظائف التي تولاها السودان خلال العصر المملوكي.

١- وظائف البلاط السلطاني

اتسم البلاط السلطاني في العصر المملوكي بتنظيم وترتيب دقيق للغاية لوظائف البلاط؛ إذ لم يقتصر الأمر في ذلك البلاط عند حد الوزير والقاضي والحاجب، وإنما شمل عدد كبير الموظفين تمتعوا بنفوذ كبير في أرجاء السلطنة. كما غلب على أصحاب تلك الوظائف الصفة الحربية، ولعل مرد ذلك هو النشأة الحربية للمماليك، والوقائع الحربية الجسيمة التي عايشها المماليك منذ قيام دولتهم. للمزيد من التفاصيل حول تنظيم البلاط المملوكي(٤٧)، وقد حظي السودان بثقة الكثير من جانب سلاطين المماليك فتولى غير واحد منهم وظائف في البلاط السلطانى، بل جمع بعضهم عدة وظائف في آن واحد على نحو ما سوف نبين.

أ- وظيفة مقدم المماليك السلطانية

تعد هذه الوظيفة من الوظائف المهمة في البلاط السلطانى، ويقوم صاحبها بالإشراف على الجنود السلطانية(٤٨)، وقد تولاها عدد ليس بالقليل من الطواشية السودان، حتى أننا نجد في بعض الفترات يتعاقب عليه أكثر من واحد من الطواشية السودان دون غيرهم، يظهر ذلك من سيرة الطواشي شرف الدين مختص الظاهري الذي تولى تقدمة المماليك في عهد الظاهر برقوق وولده السعيد(٤٩)، واستمر في وظيفته في عهد المنصور قلاوون الذي زاد في حرمته وأمّره وأقطعه إقطاع ستين فارسًا. ظل مختصًا على حاله هذا إلى أن توفي سنة ٦٨٩هـ/١٢٩٠م، فأقام المنصور عوضًا عنه الطواشي مرشد(٥٠).

وشغل هذه الوظيفة الطواشي سابق الدين مثقال الآنوكي الحبشي في سنة٧٦٣هـ/١٣٦٢م الذي كان من بين خدام الأشرف شعبان بن حسين بن الناصر محمد بن قلاوون، وظل يشغل تلك الوظيفة إلى أن توفي سنة٧٧٦هـ/١٣٧٤م(٥١). وظهرت على عهد

السلطان الأشرف برسباي(٨٢٥-٨٤٢هـ/١٣٢١-١٤٣٨م) شخصية ياقوت الأرغون شاوى الحبشى وصار مقدمًا للمماليك السلطانية(، وظل يشغل ذلك المنصب لفترة طويلة وقد طالت أيامه في تلك الوظيفة لحسن سيرته[٥٢]، وفي سنة ٨٢٦هـ/ ١٤٢٣م تولى إمرة ركب الحج المصري، وتورد المصادر أنها لم تكن المرة الأولى التي يخرج فيها بالمحمل[٥٣]، ويصفه صاحب النزهة بقوله "وله شهرة جميلة وهمة وافرة وحرمة زائدة"، وقد ظل مقدمًا للمماليك السلطانية إلى أن توفي سنة٨٣٣هـ/١٤٢٩م خلال عهد السلطان الأشرف برسباي[٥٤]، ودفن بتربته التي أعدها لنفسه، وكان قد رتب فيها شيخاً وطلبة وقراء ووقف عليها وقفاً جيدًا[٥٥].

والراجح أن العبيد السود قد بلغوا قدرًا كبيرًا من القوة داخل المجتمع المصري خلال تلك الفترة، ويظهر ذلك بوضوح في حوادث سنة ٨٣٢هـ/١٤٢٩م، إذ يشير إلى صدور أمر من السلطان لمتولى الشرطة يأمره فيه بتتبع العبيد السود والقبض على عدد منهم ونفيهم خارج القاهرة لكثرة ما أحدثوه من مفاسد في العاصمة[٥٦]، غير أنهم لعبوا في العام نفسه دورًا أمنيًا كبيرًا عندما تصدوا لفساد المماليك الجلبان فيقول لما اشتد فسادهم وكثر أذاهم للناس، فتجمعت السودان وقاتلوهم[٥٧]. ومن دلائل كثرتهم في المجتمع المصري خلال العصر المملوكي، أنه لما وقع الطاعون في مصر سنة ٨٣٣هـ/١٤٢٩م بلغ عدد من توفي من السودان وحدهم نحو ثلاثة آلاف نفس[٥٨].

وشهد عهد السلطان الأشرف برسباي ظهور أحد أهم الشخصيات السودانية التي لعبت دوراً مهماً في المجتمع المصري، وهى شخصية جوهر بن عبد الله القنقبائي، الذي بدأ حياته كأحد الخدام لدى بعض الأمراء ثم اتصل بالعلم بن الكويز[٥٩]، فعظم قدره وحسنت سيرته إلى أن عهد إليه السلطان الأشرف برسباي بتولى الخازندارية التي يشرف صاحبها على خزائن السلطان[٦٠]، وقبل أن يتولاها لم تسبق له ولاية ولا رئاسة في بيت السلطان، غير أنه باشرها بعقل وتدبير[٦١]، وبلغ من ارتفاع شأنه لدى الأشرف برسباي أن قال الصيرفي في حقه: "وصار الطواشي شريكه في الدولة"[٦٢]، كما أخذ في التقرب إلى الناس حتى تزاحموا على بابه وصار يقضى حاجة من ينتمى إليه من أبناء جنسه، لكنه في نفس الوقت أخذ يتقرب إلى السلطان بجمع الأموال من وجوه أكثرها غير شرعي، فكان يجمع الأموال باسم السلطان، ويتبرأ عند الناس وينكر ذلك على السلطان[٦٣].

وقد تسبب جوهر للتجار في كثير من المحن طوال فترة توليه الخازندارية؛ إذ صار متكلمًا في بهار السلطان ومتاجره مشاركًا في ذلك لعظيم الدولة؛ بل انفرد عن عظم الدولة بالكلام وصارت حرمته أعظم منه. ولعل من الأمور الغريبة النادرة أن جوهرًا هذا قد تولى منصب القضاء، فاستقر في قضاء دمياط سنة ٨٤٠هـ/١٤٣٦م، فصار يكتب لنائبه في دمياط "الداعي جوهر الحنفي" مثلما كان يكتب قاضى القضاة[٦٤].

ولا ندرى كيف سّير جوهر القضاء في ظل اشتغاله بكل تلك الوظائف، خاصة وأن المصادر تشير تارة إلى أنه سار فيه سيرة حسنة أفضل ممن كان قبله، وتارة تشير إلى أنه جرى على عادة من كان قبله، فاستناب فيه من يرتشى المال[٦٥]. وتورد المصادر أن السلطان الأشرف برسباي توفي وجوهر في وظيفته لحسن سياسته، وفي عهد السلطان جقمق(٨٤٢-٨٥٧هـ/١٤٣٨-١٤٥٣م) أضيفت إليه وظيفة الزمامية[٦٦] عوضاً عن فيروز الساقي[٦٧]، فنال من العز والجاه ما لم ينله طواشي قبله[٦٨]. لم يجمع جوهر القنقبائي فقط بين الخازندارية والزمامية، وإنما جمع مع المنصبين أيضًا وظيفة ثالثة هي وظيفة ناظر دار الضراب[٦٩]. وقد بلغ من اتساع نفوذه أن من خالفه في شيء لا يأمن على نفسه ولا ماله[٧٠]، ويورد السخاوى أن الحبوش أخذوا يتفاخرون على غيرهم بجاهه وسلطانه فيقول: "...كان له قريب من الحبوش فأسكنه في دار عند بساتين الوزير فعمره وصار هو ومن معه يتظاهرون بما لا يتظاهر به غيرهم بجاهه"[٧١]، وقد انخفض جاههم بموته على حد وصف ابن حجر[٧٢].

وقد لعب جوهر القنقبائي دورًا سلبيًا في الريف، ولا سيما في الجانب الاقتصادي، فقد استولى على بعض أوقاف المسلمين دون أن يستأجرها[٧٣]، كما استأجر البعض الآخر بالنزر اليسير بالنسبة لما يحصّله منها، فكان يستأجر القرية بخمسين دينارًا وهى تغل قدر المائة أو أزيد. وفضلاً عن ذلك بالغ القنقبائي في ظلم العمال حتى أنه كان يمتنع عن صرف الأجر لهم رغم أنه توسع في تحصيل الإقطاعات فوجد باسمه عند موته نحو خمسين ما بين رزق وإقطاع ومستأجرات، ومع ذلك فهو يواظب على الصلاة والتلاوة، ويقرب أهل القرآن ويتصدق على فقراء الحرمين بجملة من المال[٧٤].

وعلى الجانب المعماري فقد شيد جوهر داراً له في درب الأتراك[٧٥] بالقرب من الجامع الأزهر، كما شيد مدرسة عند الجهة القبلية للجامع الأزهر وفتح لها شباكاً في جدار الجامع وأفتاه في ذلك جماعة من العلماء في حين امتنع البعض الآخر عن تلك الفتوى، وكان

ذلك في أواخر عمره حيث توفي قبل إتمام تلك المدرسة فدفن بها(٧٦). وقد توفي جوهر القنقبائي في شعبان سنة٨٤٤هـ/١٤٤٠م، وبالرغم من عمله في عهد السلطنين برسباي وجقمق إلا أنه لم يتعرض لأي نكبة، ولم يعثر له على كثير من الأموال، فأصاب ذلك السلطان جقمق بالضيق الشديد(٧٧)، وأقام السلطان جقمق جوهر التمرازي الحبشي في وظيفة الخازندرية عوضًا عنه(٧٨)، ولكنه لم يعمر فيها طويلاً رغم حسن سيرته في العمل.

وتذكر لنا مصادر تلك الفترة أمثلة أخرى لغير هؤلاء من السودان الذين برزوا في المجتمع المصري وتولوا تلك المناصب، ومنهم مرجان بن عبد الله الحصني الحبشي الطواشي الذي كان وضيعاً في مبدأ أمره، فقد كان من خدام صاحب حصن كيفا(٧٩) اشتراه ورباه وأدبه ثم أعتقه، وبعد موت أستاذه خرج من الحصن وقد قاسى خطوب الدهر وتغرب واحتاج في غربته حتى أنه كان يسأل الناس ثم حسنت حاله وخدم عند جملة من الأمراء، ثم قدم إلى مصر ودخل القلعة فصار من جملة خدام الطباق وتولى عدة وظائف، فتولى وظيفة سائس وهو الذي يقوم بخدمة الدواب وتنقية العليق لها وتأدية الأمانة فيها(٨٠).

ثم تولي عام ٨٥٤هـ/١٤٥٠م وظيفة البازدار(٨١) إلى أن تركها فتولى وظيفة أمير شكار وهو القائم على أمر الدجاج والجوارح السلطانية والمتحدث في أمرها(٨٢)، ثم استقر أميرًا لركب الحج سنة٨٦٢هـ/١٤٥٧م، فكانت إمارته للحج فأل سوءٍ على أهل مكة؛ إذ صحب معه في موسم الحج جماعة من أتباعه أوقعوا في الناس الظلم ونهبوا أموالهم(٨٣)، ويورد غير مصدر من مصادر تلك الفترة أنه تولى تقدمة المماليك، فسعد حاله غير أنه لم يرع النعمة بل أخذ في الإسراف على نفسه إلى أن توفي وقد ناهز الستين من العمر في سلطنة الظاهر خشقدم سنة ٨٦٥هـ/١٤٦٠م(٨٤).

ولما توفي مرجان الحبشي خلع السلطان خشقدم(٨٦٥-٨٧١هـ/١٤٦١-١٤٦٧) على حبشيٍ آخر ليحل محله وهو جوهر النورزي الحبشي الذي صار مقدمًا للمماليك السلطانية في شهر جمادى الأخر سنة ٨٦٥هـ/١٤٦٠م، وقد كان على عكس سابقه محبًا للخير ذا دين متواضعًا، ولعل هذه الصفات كانت سببًا من أسباب ارتقاء جوهر النوروزي في المناصب إلى أن جمع بين الخازندارية الكبرى والزمامية في ربيع الأول من سنة٨٧٣هـ/١٤٦٨م(٨٥)، ويذكر السخاوى أنه كان متجملاً في ملبسه وموكبه، غير أنه لم يذكر أنه تولى أية مناصب غير تقدمة المماليك، كما يشير إلى أنه اختار الانفصال عنها

لعجزه عن بعض الأمراء الجلبان، ولزم داره على أحسن حال إلى أن توفي سنة٨٨٢هـ/١٤٧٧م(٨٦).

ويعد محسن الخازن الطواشي الحبشي من أشهر السودان الذين تولوا منصب الخازنداريه فيقول ابن إياس: "وفي سنة٩١١هـ/١٥٠٥م تغير خاطر السلطان قنصوة الغوري(٩٠٦-٩٢٢هـ/١٥٠١-١٥١٦) على محسن الخازن حتى أمر بنفية إلى سواكن"(٨٧) مما يعنى أن محسنًا هذا كان قريب من السلطان الغوري، ومن أهل المناصب في دولته.

ب- **وظيفة نائب مقدم المماليك**

تولى أمرها عددًا من الأحباش لعل أشهرهم جوهر المنجكي إبراهيم صفي الدين الحبشي الطواشي، ويقال له الصفوي، كان في مبدأ أمره من جمله مقدمى الطباق(٨٨) حتى ولاه السلطان الظاهر جقمق نيابه تقدمة المماليك عوضًا عن فيروز الركني(٨٩)، فحسنت حاله وعمر لنفسه مدرسه أقيم فيها درسًا للفرائض على أيدى أحد مشايخ المالكية، وأقيمت فيها الجمعة لأول مرة في رمضان سنة٨٤٤هـ/١٤٤٠، وقد عُزل جوهر عن النيابة ومات فجأة سنة٨٥١هـ/١٤٤٧م وقيل ٨٥٢هـ/١٤٤٨م(٩٠).

وتولى وظيفة نائب مقدم المماليك عنبر الحبشي الطنبذي الطواشي الذي كان من خدام التاجر نور الدين الطنبذى، وبعد موت سيده خدم جملة من الأمراء إلى أن اتصل بخدمة الظاهر جقمق، وصار من مقدمى الطباق البرانية، ثم ترقى ليتولى نيابة تقدمة المماليك، وذلك دون أن يكون له سابق خبره بتلك الوظيفة، وحسن حاله وجنى الكثير من الأموال، وبنى في أواخر عمره مدرسه بالباطلية(٩١)، وقد مات عنبر الحبشي بعد أن صرفه السلطان الظاهر خشقدم عن وظيفته وذلك في المحرم سنة ٨٦٧هـ/١٤٦٢م(٩٢). وكان من بين السودان من تولوا مناصب أخرى في قيادة الجند خاصة في مكة المكرمة عند بني عجلان فقد تولى قيادة جند الشريف حسن بن عجلان القائد ريحان النوبي الذي توفي بمكة ٨٤٩هـ/١٤٤٥م(٩٣). ومنهم أيضًا ناصر النوبى عتيق حسن ابن عجلان الذي تولى المنصب نفسه(٩٤).

ولم يقف الأمر بالسودان عند حد الوظائف العسكرية، وإنما تولوا وظائف أخرى يغلب عليها الطابع الاقتصادي، فقد تولى ريحان الحبشي المكي المتوفي سنة ٨١٦هـ/١٤١٣م أمر المكس بجدة خلال سيادة على بن عجلان على مكة، وحصّل من وراء ذلك ثروة وأملاك ضاع أغلبها فيما بعد(٩٥).

ورغم أننا لم نعثر خلال بحثنا إلا على هذا المثال للسودان الذين تولوا مثل تلك الأعمال ذات الطابع الاقتصادي، إلا أن هذا مؤشر إيجابي على تولي غيره من السودان العديد من المناصب في مختلف أعمال الدولة، وأنهم صاروا كغيرهم من فئات المجتمع الأخرى ينظر إليهم بعين الاعتبار، وبخاصة بعد أن أظهر من تولوا مثل هذه المناصب منهم كفاءة كبيرة في أداء واجبات وظائفهم، هذا فضلًا عن تميز غالبيتهم بالدين والمروءة.

ج- وظيفة رأس النوبة

وتولى فريق آخر من السودان وظيفة رأس نوبة[٩٦] الجمدارية، ومنهم صفي الدين جوهر بن عبد الله الارغون شاوي الظاهرى الساقى الحبشى الجنس، ويقول ابن تغرى بردى في حقه: "كان رجل ذا دين وأدب وحشمه، فكان من حسنات الدهر" مارس صفي الدين مهام وظيفته في تواضع ورجاحة عقل، ومات وهو على رأس عمله وهو في الستين سنة ٨٧٠هـ/١٤٦٥م، ولمكانته وأمانته في القيام بعمله حضر السلطان الظاهر خشقدم الصلاة عليه[٩٧].

وشغل هذه الوظيفة من السودان مسرور الحبشي السيفي قراقجا الحسني، ويذكر في المصادر بالخير والتعبد بالصوم مع تلطفه بالفقراء، كما أثنى الكثيرون على تصرفه في مدرسة أستاذه وأوقافها وغيرها من الأوقاف التي أضيفت إليه، وقد كان مسرور الحبشي ممن حج في أيام أستاذه، وتوفي سنة ٨٩٥هـ/١٤٩٠م[٩٨]، فحضر السلطان الأشرف قايتباى(٨٧٣-٩٠٢هـ/١٤٦٨-١٤٩٦م) الصلاة عليه، كما عثر له على الكثير من الأموال.

وبرز في عهد السلطان الأشراف قايتباى محسن الطواشي الحبشي الذي تولى وظيفة رأس نوبة السقاة[٩٩]، غير أن ابن إياس يذكر أنه قاسى بعد توليه هذه الوظيفة غاية الشدائد والمحن[١٠٠].

خلال تلك الفترة تنامى شر العبيد داخل المجتمع المصري، ورغم أن قوتهم وشرهم لم توجه إلا ضد بعضهم البعض، إلا أن ذلك يعد مؤشرًا على تنامى قوة هذه الفئة داخل المجتمع المصري خلال العصر المملوكي فيقول ابن إياس: "...تزايد شر العبيد حتى خرجوا في ذلك عن الحد وساروا يقتلون بعضهم بعضًا حتى أعيا الوالى أمرهم وصاروا طائفتين طائفة تعادى طائفة"[١٠١].

د- وظيفة شاد الحوش

تولى بعض السودان وظيفة شاد الحوش والتي يقوم صاحبها بالتفتيش على الدواوين(١٠٢)، ومنهم معروف اليشبكي الحبشي الذي شغل هذه الوظيفة سنة٨٦٦هـ/١٤٦١م غير أن سيرته لم تكن محموده، فعلى حد قول السخاوى كان من مساؤى أبناء جنسه؛ ولذلك تعرض للعقوبة على أيدى السلطان الأشرف قايتباى الذي أمر بنفيه إلى قوص سنة ٨٧٤هـ/١٤٦٩م، ولم يلبث أن توفي في نفس العام(١٠٣).

وعوضًا عن اليشبكى عين السلطان قايتباي سرور الحبشي الشقراوي خوند(١٠٤) شقراء ابنة الناصر فرج، كما استنابه في أوقاف الناصر فرج، فضيق على مستحقي التربة الناصرية وكلفهم بما لم يألفوه، وتصرف تصرفًا منكرًا. غير أنه قام بالكثير من الأعمال الجيدة، فقد جدد المنبر وفرش المكان بالبلاط، وعمر في خانقاه الناصر فرج خزانة للكتب، ويذكر السخاوى عنه حين حج ما يشير إلى جوده وكرمه وتعففه فيقول: " ...، فرأيت من يشكره بمداومته لصوم الاثنين والخميس، وبإكرام أهل العلم، وتعففه في مباشرته وعدم ارتشائه"(١٠٥).

وتشير المصادر في حوادث سنة ٩١٠هـ/١٥٠٤م إلى وفاة عبدٍ حبشيٍ كان يعمل بجمقدارًا(١٠٦) لدى أحد الأمراء، وعند موته وجدوا عنده ثروة كبيره بلغت نحو ثمانية الآف دينار ذهب غير القماش(١٠٧).

2- وظيفة شيخ خدام الحرم النبوي

إن المقصود هنا هو القيام بأعمال النظافة والتطيب والإسراج للحرم النبوي والحجرة الشريفة. وهذا العمل من الأعمال التطوعية التي ظهرت منذ تأسيس المسجد النبوي، ولكنَّ الأمر اختلف بعد ذلك ليصبح هذا العمل وظيفة يقوم بها أفراد معينون من الدولة بل ولهم شيخ يشرف على أعمالهم وينظمها. وقد تباري السلاطين والأمراء في إرسال الخدام إلى الحرم النبوي الشريف، وتشير المصادر إلى أن السلطان صلاح الدين الأيوبي(٥٦٩-٥٨٨هـ/١١٧٤-١١٩٣م) كان من أوائل السلاطين الذين اعتنوا بهذه الوظيفة ومن يعملون بها، فأوقف لهم الأوقاف للإنفاق عليهم(١٠٨).

فبرز عدد من السودان تولوا الخدمة بالحرم النبوي الشريف، ومنهم من تولوا وظيفة شيخ الخدام، وهى من أهم الوظائف خلال العصر المملوكي، فتولاها يمن الحبشي الذي توفي سنة٦٧٥هـ/١٢٢٦م(١٠٩)، وسرور الحبشي الذي يعرف بالشبلي الذي تولى وظيفة شيخ الخدم

بالحرم النبوي الشريف واستقر بها إلى أن توفي سنة٨٠٦هـ/١٤٠٢م[١١٠]، ثم تولاها جوهر التمرازي الذي كان خازندارًا، ثم عزل وسجن، ثم أطلق وظل بلا عمل إلى أن أنعم عليه السلطان جقمق بوظيفة شيخ الخدام سنة٨٤٩هـ/١٤٤٥م، فأقام بالمدينة إلى أن مات سنة٨٥٠هـ/١٤٤٦م[١١١]، واستقر عوضه طواشي آخر هو جوهر الطواشي فارس كبير الطواشية بالمدينة،[١١٢].

وترقى سرور الطرباي الحبشي في سنة٨٥٤هـ/١٤٥٠م الذي كان جمدارًا[١١٣] ليتولى مشيخة الخدام بالحرم النبوي الشريف، وظل بها إلى أن توفي سنة٨٧٣هـ/١٤٦٨م، فكانت سيرته محمودة[١١٤]. وفي عهد السلطان الأشرف قايتباى أخلع على مرجان التقوى الحبشي بوظيفة شيخ الخدام سنة ٨٧٣هـ/١٤٦٨م فاستقر بها إلى أن عزل عنها سنة٨٨٨هـ/١٤٨٣م[١١٥].

ورغم كثرة السودان ممن تولوا الخدمة من العمل في الحرم النبوي الشريف، إلا أن المصادر منذ العصر الأيوبي، ولاسيما كتب الرحلة تظهر أن هذه الوظيفة لم تكن حكرًا على السودان دون غيرهم، فيشير الرحالة ابن جبير المتوفي عام (٦١٤هـ/١٢١٧م) أن خدام المسجد فتيان أحابيش وصقالبة، وأن المؤذن الراتب فيه كان من أبناء بلال بن رباح رضي الله عنه[١١٦].

ولكن حديث ابن بطوطة المتوفي عام(٧٧٩هـ/١٣٧٧م) يوحي بأن أكثرهم كانوا من الأحابيش حين قال: "...، وسدنته فتيان من الأحابيش وسواهم"، كما أن مؤذن المسجد على عهده لم يعد من السودان أو من أبناء بلال بن ربح، وإنما كان رجل من مصر، وهؤلاء الخدام كانت تجري لهم الأرزاق من مصر والشام تدفع إليهم كل عام[١١٧]، هذا فضلًا عما كان يوقفه الأمراء والسلاطين للإنفاق عليهم[١١٨].

وتمتع خدام الحرم النبوي الشريف ممثلين في شيوخهم بمكانة مرموقة لدي سلاطين المماليك، وذلك بغض النظر عن كونهم من السودان أو من غيرهم، وظهر ذلك في حسن استقبال السلاطين لهم والاهتمام بأمرهم وإجزال العطاء لهم، ولعل من أمثلة ذلك ما فعله السلطان الظاهر بيبرس لما قدم الطواشي جمال الدين محسن الصالحي شيخ خدام الحرم النبوي إلى مصر سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٨م، فأكرمه وأجزل له العطاء حتى حصّل نحو مائتي ألف درهم[١١٩]. مما يشير إلى مكانتهم العالية في المجتمع آنذاك.

3- وظائف أخري

تولى السودان وظائف أخري، وقاموا بجهد كبير في أدائها، ومن ذلك وظيفة متولي المكس. تولاها ريحان بن عبد الله الحبشي في جدة على عهد ولاية السيد على بن عجلان، وكانت له ثروة كبيرة وأملاك، ولكنة افتقر في آخر عمرة وتوفي في زبيد سنة ٨١٦هـ/١٤١٣م(١٢٠).

وكانت حراسة المنشأت العامة، والقيام على نظافتها وتنظيمها من الأعمال التى تولاها السودان، ففقد كان بلال بن عبد الله الحبشي محدثًا بالحرم الشريف، إلا أنه عمل بوابًا للمدرسة المنصورية، كما عمل فراشًا بالحرم الشريف(١٢١). ومنهم عبد الله الزيلعي الذي ذكره السخاوي في ترجمته أنه كان بواب باب الرحمة أحد أبواب المسجد النبوي(١٢٢)، كما وتولى الخدمة في المسجد النبوي الشريف جوهر الشهاب الحبشي وظل في الخدمة إلى أن توفي سنة ٧٥٦هـ/١٤٥٥م(١٢٣).

ثالثًا- الدور الاجتماعي للسودان في مجتمعي مصر والحجاز

لم يقل دور السودان الاجتماعي في مجتمعي مصر والحجاز بحال من الأحول عن دورهم السياسى والإداري، وقد برز ذلك في عدة مجالات سوف نستعرضها على النحو التالى:

١- دور السودان في تربية أولاد السلاطين والأمراء

كانت وظيفة المربي من الوظائف المهمة التي امتهنها عدد من السودان وبخاصة الأحباش منهم، وتأتي أهمية هذه الوظيفة من كونهم عملوا كمربين لأولاد الأمراء والسلاطين، وهو ما ترتب عليه نفوذ واسع لأولئك المربين عندما يصير لأولئك الأولاد مكانة مرموقة في المجتمع، أو عندما يصبح أحدهم سلطانًا للبلاد.

كما أن عمل السودان في تربية أولاد السلاطين والأمراء يعنى أنهم صاروا مؤدبين لهم، وهذا يدل على تلقيهم قدرًا معقولاً من العلم أهلهم لأن يكونوا مؤدبين لأبناء السلاطين والأمراء(١٢٤). ويطلق على صاحب هذا العمل لفظ "اللالا"(١٢٥)، ولعل من أبرز من شغل هذا العمل من السودان هو بلال بن عبد الله الأمير الكبير حسام الدين أبو الخير الحبشي الخصى المغيثي، ويعرف بالوالى، ربي ملوكًا وأولاد ملوك. كان وافر الحرمة، له أوقاف وبر، وفيه حب للرواية، مات ربيع الآخر سنة٦٩٩هـ/١٢٩٩م، وهو في التسعين من عمره(١٢٦).

وكان دينار اللاَّلا الحبشـى الأشـرفي من الأسـماء البارزة بين من قاموا بهذا العمل، والذي لم يكن بأقل من سابقه في حب الخير وفعله فقد أوقف رزقه على جامع المارداني(١٢٧).

ومنهم أيضًـا صـفي الدين جوهر بن عبد الله الجلباني الحبشـي المعروف باللالا(١٢٨). كان قد خدم لدى جماعة من الأمراء ثم اتصل بالأشرف برسباي قبل سلطنته، ودام في خدمته إلى أن تسلطن، فقام السلطان برسباي بترقيته وجعله مربيًا لابنه الأكبر محمد ثم ابنه الأصغر العزيز يوسـف. ورغم أنه عمل كمؤدب في بداية عهد السـلطان برسـباي إلا أنه ترقى حتى تولى وظيفة زمام الدار سنة ٨٣٩هـ/١٤٣٥م لحسن سيرته ورجاحة عقله(١٢٩). ظل صفي الدين على هذا الحال حتى تسلطن جقمق، فأمسكه وصادره وسجنه في برج القلعة، وأشير إلي صـفي الدين هذا في المصـادر على أنه من كبار الخدام، وأكثرهم حشـمه وعقلاً وديناً وكرمًا، كما كانت له مدرسـة بالقرب من قلعة الجبل، وفضـلاً عن كونه اقتحم الدنيا فكان له نصـيب منهـا، إلا أنـه كـان ذا دين يقرأ القرآن الكريم بـالقراءات السـبع وكـانـت لـه الكثير من الصدقات(١٣٠).

وقد شـغل هذه الوظيفة أيضًـا مفلح الحبشـي الذي ذكر السـخاوى أنه كان كثير التلاوة للقرآن سـالكاً لطريق الصـوفية إلا أنه أشـتهر بالعمل كمؤدب للأطفال(١٣١)، كما عمل مؤذنًا، وقد مات في ربيع الأخرة سـنة٨٤٤هـ/١٤٤٠م(١٣٢). منهم كذلك ياقوت الحبشـي الكمالي البارزي الذي عمل لدى مولاه كمربى لأبنائه ثم عمل لدى ابنته ببيت الجمالى ناظر الخاص، فقام بتربية بنيه ولاسـيما الكمالي ناظر الجيش فيما بعد، كان ياقوت عاقلاً ذا دين محبًا لأهل الخير. تعرض ياقوت لشـدائد في أيام الأشـرف قايتباى حيث أهين وضـرب، وتوفي سنة٨٩٦هـ/١٤٩١م وقد ناهز السبعين(١٣٣).

ولم يكن هذا العمل قاصراً على الرجال دون النساء، فنذكر في هذا الصدد سر النديم دادة الملك العزيز بن الأشرف برسباي والتي ساعدته على الفرار من دور الحريم وتعرضت من جراء ذلك إلى عقاب شديد على أيدى السلطان جقمق(١٣٤).

كان للمربين أو اللاَّلات تأثيرًا عظيمًا على أبناء الأمراء والسـلاطين حتى بعد تولى هؤلاء الأولاد السلطانة، ومن ذلك ما أشار إليه ابن إياس في قصـة الملك الصـالح بن ططر، وكيف بلغ تأثير اللالا في حديثه حتى بعد أن صـار سـلطانًا فيقول "كان يسـمى الفرس البوز الفرس الأبيض، فقال له بعض الخدام لا تقل الفرس الأبيض، وقل الفرس البوز، فحفظ منه

ذلك وبعد أن تولى السلطنة قال لأحد الخدّام وكان طلب سلطانية صيني شفاف أبيض، هات السلطانية البوز فعاب عليه الخادم ذلك الكلام، فقال له السلطان لَالتي علمني ذلك(١٣٥).

كما تدخل اللاَّلات على سبيل المثال في تعيين الموظفين، كما فعل جوهر اللاَّلا عندما عزل شخصًا من وظيفته في المدرسة الأشرفية كان قد عينه شيخ المدرسة كمال الدين بن الهمام، وعيّن غيره، مما اضطر ابن الهمام إلى عزل نفسه من مشيخة المدرسة. ولما بلغ الأمر السلطان أقر ما فعلة اللاّلا، وعين شيخا أخرى على رأس المدرسة عوضًا لابن الهمام(١٣٦). مما يشير إلى الدور الكبير الذي لعبه اللالات في دور السلاطين خلال العصر المملوكي.

ويشير السخاوى إلى أن بعض السودان الذين جمعوا بين العمل في الجهاز الحكومي والعمل الحر، ومن أولئك مسعد الحبشي مولى نائب الشام الذي ترقى في المناصب داخل الدولة المملوكية حتى تولى وظيفة مهتار الطشتخاناه(١٣٧) وفراش الخزانة، وغير ذلك من الوظائف حتى كثر ماله وخدمه، وفضلاً عن ذلك استخدمه سيده كسفير له لدى السلطان لقوته وإقدامه وفصاحة لسانه، ولكنه تعرض بعد موت سيده لكثير من الشدائد والمحن، ومع ذلك لزم العمل بالتجارة حتى مات سنة٨٩٦هـ/١٤٩٠م وترك عدة أولاد سكن بعضهم مصر والبعض الآخر سكن الشام، وقد أفناهم الطاعون في السنة التالية لموته ويورد السخاوى أنه هو الذي سم مولاه(١٣٨).

والراجح أن دور السودان في مجال التربية والتأديب لم يقتصر على دور السلاطين والأمراء، وإنما ساهم بعض السودان في العمل العام في هذا المجال، فالمصادر تشير إلى عدد من السودان الذين جاوروا في الحرمين الشرفين، وكان العمل الرئيس لبعضهم هو تعليم الأطفال، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر أبو بكر بن أحمد بن محمد الجبرتي الذي جاور في مكة لفترة طويل يعمل مؤدبًا للأطفال إلى أن توفي سنة ٧٨٠هـ/١٣٧٨م(١٣٩).

٢- السودان وأعمال البر والصدقات

ساهم السودان كغيرهم من عناصر المجتمع في أعمال البر والصدقات، فقد حصّل بعضهم نصيبًا من الدنيا، وتمع البعض منهم بالجاه، في حين تمتع فريق آخر بالحظوة عند أهل السلطة، فساعد ذلك الوضع المميز الذي تمتع به الكثيرون منهم على إقبالهم على أعمال البر والصدقات. وتعطى لنا المصادر الكثير من الأمثلة على ذلك، فمن أهل الجاه والمال

دينار العز الحبشي الذي تولى مشيخة الخدام في الحرم الشريف، وكانت له أموال كثيرة فأقبل على أفعال البر والصدقة، فأوقف بعضًا من أملاكه ونخيله ودوره للإنفاق على المجاورين، كما بذل المال الجزيل في عتق العبيد والإماء، وكفالة الأيتام، ظل على هذا الحال إلى أن توفي ٧٦١هـ/١٣٥٩م(١٤٠).

وأما أهل الحظوة فمنهم على سبيل المثال أبو بكر بن محمد الجبرتى المتوفي ٨٢٠هـ/١٤١٧م العابد الذي كان يلقب بالمعتمر لكثرة اعتماره، ولمجاورته بمكة سنوات طوال، وقد أفاد منه المحيطين به فائدة عظيمة لقربه من أهل السلطة، الأمر الذي استثمره هو في التوسط لقضاء حوائج الناس عندهم، وفي حثهم على أفعال الخير(١٤١).

وكان من أفضل أعمال الخير التي أقبل عليها السودان من أصحاب الأموال إنشاء السُبل خاصة في الحجاز، ووقفها على أهل البلد الحرام، ومنهم زين الدين بركات بن عبد الله المكيني المتوفي سنة٨٣١هـ/١٤٢٧م، فقد أنفق الكثير من ماله في إنشاء عدة أماكن في مكة المكرمة لخدمة الحجاج والمعتمرين وأهل مكة(١٤٢).

ومن ذلك أيضًا ما فعله فرج بن عبدالله الشرابى الحبشى المتوفي سنة ٨٤٧هـ/١٤٤٣م الذي أنشأ سبيلًا بمني(١٤٣)، ويبدو أن أفعال الخير والبر قد صارت مجالاً للتباري بين السودان وبعضهم البعض فها هو بركوت بن عبد الله الحبشى المتوفي سنة ٨٥٣هـ/١٤٤٩م يقدم المزيد من أفعال الخير خاصة في الحرمين الشريفين، فقد حفر الآبار وأجرى الماء إلى عدة مواضع، كما أنشأ العديد من الحدائق في طريق مكة ومنى وعرفات، ولم يهتم في ذلك بالإنسان دون الحيوان، أقام كذلك عدة صهاريج للمياه ووضع عليها أباريق لخدمة المعتمرين، كما أنفق الكثير من الصدقات على أهل الحرمين الشرفين(١٤٤).

ويُذكر في هذا الصدد أيضًا جوهر الشمسي بن الزمن الحبشي الذي شيد عدة دور بمكة المكرمه، ويذكر السخاوى أنه رافقه في عودته من المدينة المنوره، وحمد عقله وأدبه وخدمته ورغبته في الخير(١٤٥).

ولكن أفعال البر لم تتوقف عند الأغنياء من السودان دون الفقراء منهم، وإنما سعى أيضًا من لم يحصّل منهم دنيا ولا جاه إلى فعل الخير، ومن هؤلاء على سبيل المثال ريحان الزنجى الحلبى المتوفي سنة ٨٨٧هـ/١٤٨٢م، والذي يذكر بأنه من أهل الخير والدين، فقد كان يعمل بالأساس حلاقًا يحلق رؤس الأمراء وأكابر الناس، ولكنه في ذات الوقات كان

يخرج لسقاية الماء بين العشاءين من خانقاه شيخو، ثم استقر على سقاية الماء في سبيل الأشرف قايتباى بجامع ابن طولون(١٤٦).

ومن السودان من سلك طريق العلم(١٤٧) والزهد والرباط فحسب(١٤٨)، منهم الفقيه الصالح على بن أبي بكر الزيلعي المتوفي سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٧م، والناس تقصد قبره بالزيارة(١٤٩). وكان بعضهم ذا نفع للمجتمع المحيط به من هذه الجهة. ومثال ذلك ياقوت بن عبد الله الحبشي القُرشي الذي لقب بالعارف، وهو تلميذ الشيخ أبي العباس المرسيّ، كان رجلاً صالحًا يقصده الناس بالدعاء والتبرك، وقد توفي بالإسكندرية سنة ٧٢٢هـ/١٣٢٢م(١٥٠)، وكذلك أبو بكر بن محمد بن موسى الجبرتي الملقب بالمعتمر، فقد كان يسعي لدي السادات في قضاء حوائج الناس حتى توفي بمكة سنة ٨٢٠هـ/١٤١٧م(١٥١). ويذكر السخاوي غير واحد من السودان ساهموا في أبواب الخير والعلم بالحرمين الشريفين منهم عبد العزيز بن الشمس محمد الجبرتي الذي كان على اتصال بالسلطان بالناصر محمد، وعمر الزيلعي الذي تشير المصادر أنه كان معلمًا للقرآن(١٥٢).

٣-السودان والأعمال الحرة

ولما كان بعض السودان قد جمع بين العمل في الجهاز الحكومي والعمل الحر، فإن البعض الأخر قد اتجه إلى العمل الحر فقط، فكان لهم دورًا بارزًا في الحركة التجارية، والأمثلة على ذلك كثير، منها التاجر زين الدين بركات بن عبد الله المكيني مولى الخواجا مكين الدين اليمني، كان حبشيًا صافي اللون حسن السيرة مارس العمل التجاري فأضحى في سعة من المال، وعظم قدره في نفوس الناس، ويُذكر أن زين الدين هذا هو جد قاضى القضاة صلاح الدين المكيني(١٥٣).

وكان بشير الحبشي الأميني فتى الأمين الطرابلسي الحنفي من السودان الذين عملوا بالتجارة، فقد تولى أولاً تربية أولاد سيده، وسمع معهم قليلاً من القرآن، فلما أعتقه سيده عمل بالتجارة في السكر وغيره من أنواع المتاجر، وزار اليمن في سبيل ذلك، كما يُذكر أنه حج كثيرًا وجاور، وتردد على دمياط مرارًا ثم قطنها؛ مختفيًا من ديون تراكمت عليه حتى مات فيها بالطاعون سنة ٨٦٤هـ/١٤٥٩م(١٥٤).

وتشير المصادر أيضًا إلى بشير الحبشي القاهري مولي الخواجا يعقوب كرت، وتشير المصادر إلى أن بشير هذا كان من أهل العلم والصلاح، حفظ القرآن واشتغل بالقراءات السبع

عندما كان بمكة، فلما قدم القاهرة أخذ الفقه والفرائض والحساب عن غير واحد من العلماء. ورغم اشتغاله بالعلم وصحبة الصالحين إلا أنه كان يعمل بالأساس تاجرًا، وحصّل من التجارة أموالاً كثيرة توفي بالطاعون سنة ٨٦٤هـ/١٤٥٩م [١٥٥].

وتذكر المصادر كذلك إلى شخص يسمى بدر الحبشي، الذي كان عبدًا لأبي جمال الدين المغربي. وقد اهتم به سيده، فعلمه القرآن والخطوط المتنوعة مع فصاحة اللسان، كما تميز هو برجاحه العقل. بعد موت سيده تنقل لدى بعض الأمراء إلى أن صار في خدمة السلطان خشقدم[١٥٦] الذي عوّل عليه في أشياء كثيره، وصار يكثر السفر لمكة والإسكندرية، بغرض التجارة[١٥٧]. وعلى نفس الدرب سار جوهر الشمسي بن الزمن الحبشي الذي اعتنى به سيده ورباه أحسن تربية حتى برع في التجارة وصار من أعيان التجار[١٥٨].

رابعًا- دور النساء السودانيات السياسي والاجتماعي في مجتمعي مصر والحجاز.

لم يقتصر الأمر بالنسبة للسودان في المجتمع المصري على الرجال من دون النساء، فقد لعبن دورًا كبيرًا في المجتمع خلال العصر المملوكي، وسوف نرصد ها الدور في نقطتين، الأولى حول دورهن السياسي والإداري، والثانية حول دورهن في بيوت الوجهاء.

١-دور النساء السودانيات السياسي والإداري

إن عمل النساء السودانيات في بيوت السلاطين والأمراء، واتخاذ بعض السلاطين منهن أمهات أولاد أكسبهن أهمية كبيرة في البلاط السلطاني، فتدخلن في شؤن الحكم، وهناك الكثير من النماذج لنساء من السودان تبوأن مكانة كبيرة لدى السلاطين والأمراء. ومنهن **الست حدق** دادة السلطان الناصر محمد بن قلاوون ومربيته. كانت لهذه المرأة مكانة كبيرة عند الناصر، وهو ما دفعها للتدخل لرفع الظلم عن أحد التجار. وملخص قصته أن ناظر الخاص السلطاني كان قد الزمه بشراء خشب من المتجر السلطاني بمبلغ ألفي دينار في حين أن سعره لا يتجاوز الألفي درهم. فقبل السلطان مظلمة ذلك التاجر إكرامًا لدادته الست حدق[١٥٩].

وكانت **اتفاق العوادة** من أشهر المغنيات السمر اللاتي ذاع صيتهن وشغف بهن السلاطين، فتزوجها ثلاثة من أبناء الناصر محمد بن قلاوون هم الصالح إسماعيل(٧٤٣-٧٤٦هـ/١٣٤٢-١٣٤٥م) وأنجب منها ولدًا، الكامل شعبان(٧٤٦-٧٤٧هـ/١٣٤٥-١٣٤٦م)

وولدت له كذلك، وكان آخرهم السلطان حاجى(٧٤٧-٧٤٨هـ/١٣٤٦-١٣٤٧م). ووضع اتفاق على هذا النحو جعل لها نفوذ كبير في البلاط السلطاني، فتدخلت في شؤن الحكم والإدارة[١٦٠].

٢-دور النساء السودانيات في بيوت الوجهاء

حظيت النساء السودانيات أو السوداوات على العموم بنصيب وافر من المديح في الشعر العربي[١٦١]. وقد أقبل الأمراء والوجهاء على الزواج منهن، ولعل سبب ذلك الأقبال على التزوج منهن ما تميزن به من صفات كالكرم وحسن الخلق وقلة الأذى وطيب الأفواه وكثرة ضحك السن[١٦٢]، ويذكر ابن خلدون أن من خلق السودان على العموم الخفة والفرح والسرو، وكثرة الطرب ولذا تجدهم مولعين بالرقص[١٦٣].

وللعرب والمسلمين قديم اختلاط بالسودان، وكثيرًا ما اتخذن منهن أمهات أولاد، فقد ذكرن مولدات المدينة والطائف واليمامة بذوات الألسن العذبة والجواب الحاضر[١٦٤]. إن هذه الصفات الحسنة دفعت الوجهاء إلى الإقبال عليهن والتزوج منهن، وهناك الكثير من الأمثلة على نحو ما سنعرض.

ترصد لنا مصادر العصر المملوكي عدد من الترجمات لنساء سوداوات. تؤكد هذه الترجمات على إقبال الوجهاء على الزواج منهن أو اتخاذهن أمهات أولاد. وعلاوة على ذلك تشير بعض ترجمات الوجهاء نفسها إلى ميلهم للسّود، ومثال ذلك ما ذُكر عن الصالح إسماعيل بن قلاوون(٧٤٣-٧٤٦هـ/١٣٤٢-١٣٤٥م) من أنه كان يميل إلى السّود مع العفة وكراهة الظلم[١٦٥].

ومن تلك النماذج ثلاث هن بنات ياقوت الحبشى عتيق العماد يحيي بن فهد، وهن فاطمة ابنة ياقوت تزوجها أحمد بن محمد بن خلف الصائغ، فأنجبت له ولده الحسين. ومريم ابنة ياقوت، والثالثة هي صفية ابنة ياقوت الحبشي[١٦٦]، وثلاثتهن ممن اشتغلن بالعلم، وقد أجازهن كبار علماء عصرهن، وأجزن للعديد من العلماء خاصة صفية التي أجازت لابن فهد، فأوردها في معجم شيوخه[١٦٧].

ومن المستولدات أيضًا زاد الخير الحبشية المتوفية عام ٨٤١هـ/١٤٣٧م مستولدة الجمال أبى السعود محمد حسين القرشي وأم ابنته[١٦٨]. وتفاحة الحبشية المتوفية عام

٨٦٥هـ/١٤٦٠م، مستولدة الشريف عبد اللطيف بن أحمد بن ابى عبدالله الفاسى وأم ولده عبد القادر(١٦٩).

ومنهن كذلك سعاد الحبشية المتوفية في نفس العام، التي تزوجت غير واحد من الوجهاء، فقد تزوجه سيدها بركات بن حسن بن عجلان بعد أن اعتقها، وبعد وفاته تزوجها القائد شهاب الدين بديد(١٧٠). وكان السيد بركات بن عجلان قد استولد أيضًا كوكب الحبشية أم ولده أبي سعد(١٧١). وذابل الحبشية عتيقة القاضي على بن الزين القسطلاني المكي وموطوءته، ثم زوجة النجم بن أبى البركات بن الزين(١٧٢)،

وتشير المصادر أيضًا إلى سعيدة الحبشية مستولدة الخواجا شمس العقعق وأم ولده حسن وكانت تعرف بأم حسن وقد تزوجها بعد وفاة زوجها أحد الفقهاء، وتوفيت في شوال عام ٨٨١هـ/١٤٧٦م بعد أن علمت بموت ولدها في مكة المكرمة، ومنهن أيضا عاض الكريم الزنجية مستولدة التقى بن فهد وأم ابنته شعثاء، وقد ماتت عام ٨٨٥هـ/١٤٨٠م(١٧٣)، ويهب الله ابنة عبد الله الحبشى مستولدة العلامة تقى الدين محمد بن فهد الهاشمى وأم ولده محمد وابنته زينب، وكانت كذلك ممن اشتغلن بالعلم، وقد أجاز لها جملة من كبار العلماء من عدة بلدان(١٧٤).

ويضيف السخاوى إليهن جوهرة الصغرى الحبشية الكمالية التي تزوجها سيدها ثم أعتقها جوهر الكمالي، وقد ماتت في رجب من عام ٨٩٣هـ/١٤٨٨، ويذكر أنها كانت مباركة تُعرف بالخير، كما يذكر جوهر الحبشيه مستولدة يحيى بن فهد ثم زوجة حسن القمري الذي انجب منها بنتًا ثم ماتت عام ٨٩٨هـ/١٤٩٢م، ويشير كذلك إلى حبشية أخرى تدعى جوهرة أيضا، ويقول أنها كانت تذكر أن أسمها فاطمه وهى جبرتية وليست حبشية(١٧٥).

أما فيما يخص السودان الذين لم يتولوا أية مناصب وظلوا عبيدًا، فقد أدى هؤلاء العبيد دورهم في قصور السلاطين والأمراء والمياسير على أكمل وجه، غير أن هؤلاء العبيد قد لعبوا أيضًا دورًا سلبيًا في المجتمع المصري خلال العصر المملوكي، ولا سيما في الفترات الأخيرة منه. ويرصد لنا السخاوى ذلك في واقعتين. **الأولى** وقعت سنة ٨٤٩هـ/١٤٤٥م، إذ يذكر أن العبيد قاموا بثورة كبيرة في بر الجيزة، ووصل بهم الأمر إلى حد تعيين سلطان منهم(١٧٦)،

وأما **الثانية** فقد وقعت في حوادث سنة ٨٩٢هـ/١٤٨٧م، حيث صار العبيد يقتفون أثر المماليك فيما يقومون به من مفاسد؛ فكان ذلك سببًا في المزيد من الاضطرابات في البلاد، وكذلك الأضرار الواقعة بالسكان وخاصة في القاهرة(١٧٧).

ومن خلال هذا العرض يتضح لنا الدور الكبير الذي لعبه السودان داخل المجتمع المصري، وهو دور متعدد الجوانب؛ فلم يقتصر دورهم على الأعمال الخدمية في دُور السلاطين والأمراء فحسب، وإنما كان لهم دور في تولى المناصب والوظائف القيادية، بل أصبح لبعضهم نفوذ وجاه وسلطان داخل المجتمع المصري لم يكن لغيرهم من الطواشية من قبل، ووصل الأمر ببعضهم إلى حد الظلم والعسف والجور حتى ضد المصريين أنفسهم.

لعب كذلك السودان دور في الحياة الاقتصادية من خلال عمل بعضهم في مجال التجارة، أو استئجار الأراضي والإقطاعات والمتاجرة فيها، وامتد دورهم داخل المجتمع المصري إلى الجوانب العلمية والمعمارية من خلال ما عمره بعضهم من دور وترب ومدارس وخزائن للكتب سواء في مصر أو في مكة المكرمة والمدينة المنورة. بل ساهم السودان بنصيب وافر في التدريس ليس في الأزهر فحسب وإنما في مختلف المدارس العملية التي شيدت في مختلف أرجاء القاهرة خلال العصر المملوكي. وهذا يدفعنا في النهاية إلى القول بأن السودان كانوا أحد أهم عناصر المجتمع المصري الفاعلة خلال العصر المملوكي.

نتائج البحث

توصل البحث حول دور السودان في مجتمعي مصر والحجاز إلى عدة استنتاجات على النحو التالي:-

بيَّن البحث كيف تطورت صورة الجنوب في الذهنية المصرية العربية الإسلامية إلى أن أصبحت صورة قرابية بين سكان مصر الذين أضحي الكثيرون منهم عرب وبين سكان تلك الجهات الذين نسبوا أنفسهم إلى العرب.

بيَّن البحث أن نهر النيل كان أحد أهم العوامل التي ساهمت في رسم الصورة الذهنية للمصريين حول المناطق الجنوبية. كما أكد على أن وضوح صورة تلك الجهات في الذهنية المصرية جعلها الملاذ الآمن للكثيرين ممن تعرضوا للمضايقات أو لأنواع من الشدائد في مصر، وذلك منذ القدم وحتى الفترة التي نحن بصدد دراستها

أظهر البحث تفاعل السودان بصورة إيجابية مع المجتمع الذي عاشوا فيه، ولم يؤثر كون الكثيرين منهم كانوا بالأساس من العبيد وأعتقوا على ما قدموه للمجتمع في مختلف الميادين.

أظهر البحث الدور الكبير الذي لعبه السودان في تسيير شئون البلاد على الصعيدين السياسي والإداري خلال العصر المملوكي.

بيَّن البحث أن بعض السودان قد تلقوا تعليمًا جيدًا وحصّلوا من العلوم ما مكنهم من العمل كمؤدبين لأبناء السلاطين والأمراء. كما أكد أن عمل السودان كمؤدبين لأبناء السلاطين والأمراء كان له انعكاساته السياسية فيما بعد، خاصة في عصر دولة المماليك الثانية.

أظهر البحث أن دور السودان في المجتمع المصري تعاظم على نحو كبير في عصر دولة المماليك الثانية عنه في دولة المماليك الأولي. كما أظهر أن بعض السودان جمع بين العمل في جهاز الدولة والعمل الحر، ولا سيما العمل التجاري.

أكد البحث على الدور الإيجابي للسودان في المجتمع المصري في العصر المملوكي من خلال أعمال البر والصدقات التي قدموها، كإنشاء السبل وحفر الأبار ووقف الحدائق والبساتين، ولا سيما في الحرمين الشرفين.

بيَّن البحث أن الدور الذي لعبه السودان في المجتمع المصري لم يقتصر على الرجال دون النساء، فقد كان للنساء السودانيات دور كبير وشامل لكافة جوانب الحياة.

---

(١) العصفور، سعود محمد، الوظائف التي تقلدها الخدم في العصر المملوكي، مجلة التاريخ والمستقبل، جامعة المينا، مصر، ٢٠٠٨ ص٣٠٤.

(٢) إبراهيم، عبد الله، إفريقيا السوداء: مزيج من الغموض وموروث إغريقي، مجلة كلية التربية، جامعة قطر، ٢٠٠١، ع١٣٩، ص١٤١-١٤٢.

(٣) الحاج، ربيع محمد القمر، قراءة جديدة في نصوص معاهدة البقط وأثارها الحضارية والثقافية، مجلة دراسات إفريقية، مركز البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة أفريقيا العالمية، الخرطوم، ٢٠٠٧، ع٣٧، ص١٤٩.

(4) Gadallah F. F. the Egyptian contribution to Nubian Christianity, *Sudan Notes and Records*, Vol. 40, 1959, pp. 39-40.

(5) Kirwan L.P. the birth of Christian Nubai: Some Archaeological problems, *Rivista degli studi orientali*,Vol. 58, Fasc. 1/4, 1984, p.119.

(٦) للمزيد حول هذا الموضوع راجع: حريز، سيد حامد، المؤثرات العربية في شرق أفريقيا، مجلة البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٨٤، ع ١١، ص٨-١٤؛ حسن، يوسف فضل، الوجود العربي في بلاد البُجة: صفحة من سجل التمازج العرقي والثقافي في السودان، مجلة جامعة البحر الأحمر، السودان، ٢٠١١، ع١، ص٨-٢٧.؛ الجميلي، خضير عباس، انتشار العرب في مصر وشرق أفريقيا قبل الإسلام، ندوة الوطن العربي: النواة والامتدادت عبر التاريخ، المجمع العلمي العراقي ومركز دراسات الوحدة العربية، بغداد، ٢٠٠٠، ص٨٠-١٠١.

(٧) عُرف ملك النوبة بكابل فيما أورده المسعودي، وكاسل عند الإدريسي وكابيل عند الحموي، وما هذه المسميات التي نقلوها عن أهل تلك البلاد إلا تحريفًا لكلمة قيل أو أقيال، وهم حكام اليمن فيما قبل الإسلام. راجع: المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، راجعه: كمال حسن مرعي، المكتبة العصرية، بيروت، ط١ ٢٠٠٥م، ج٢، ص١٤-١٥؛ الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (د. ت)، مج١، ص٣٧؛ الحموي، معجم البلدان، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٠، ج٥، ص٣٠٨-٣٠٩؛ العيني، السيف المهند في سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودي، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط٢، ١٩٩٨، ص١٠٠.

(٨) ابن الجوزي، تنوير الغبش في فضل السودان والحبش تحقيق: مرزوق على إبراهيم، دار الشريف للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٩٩٨، ص٤١، ١١١-١٥١؛ والسيوطي، رفع شأن الحبشان، تحقيق محمد عبد الوهاب فضل، القاهرة، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩١م، ٧٢-١٠٣.

(٩) حمدون، عبد العزيز عبد الغني، أهل بلال جذور الإسلام التاريخية في الحبشة، الدار السودانية للكتب، الخرطوم، ١٩٩٥م، ص٧١-٧٧.

(١٠) كويبشانوف، يوري يخايلوفتش، الشمال الشرقي الأفريقي في العصور الوسطى المبكرة وعلاقاته بالجزيرة العربية من القرن السادس إلى منتصف القرن السابع، ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٨٨، ص٣٣-٣٩.

(١١) الواقدي، كتاب فتوح مصر والإسكندرية، نشره: هنرك أرند همفر، مطبعة ليدن، ط١، ١٨٢٥، ص٢٧.

(١٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٧٠، ج٤، ص١٠٨.

(١٣) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، الأردن، (د. ت)، ج١، ص٦٧٢-٦٧٣.

(١٤) الواقدي، مصدر سابق، ص٤٨، ٥١، ٧٧.

(١٥) البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق: عبد الله أنيس الطَّباع، وعمر أنيس الطَّباع، مؤسسة المعارف، بيروت، ١٩٨٧، ص٣٣١؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق: أبي الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٧، ج٢، ص٤٠٨.

(١٦) ابن عبد الحكم، كتاب فتوح مصر وأخبارها، مطبعة بريل، ليدن، ط١، ١٩٢٠م، ص١٧٠.

(١٧) للمزيد حول قضية رقيق النوبة راجع: نقد، محمد إبراهيم، علاقات الرق في المجتمع السوداني(النشأة- السمات- الاضمحلال)، دار عزة للنشر والتوزيع، الخرطوم، ط٢، ٢٠٠٣، ص٢٤-٢٧.

(١٨) كان من أبرز تلك الحملات حملة عبيد الله بن الحبحاب مع مطلع القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي، تلتها بعد ذلك حملة الحكم النابغي سنة ٢٠٢هـ/٨١٩م، وشهد عهد الخليفة المعتصم(٢١٦-٢٢٧هـ/٨٣١-٨٤٢م) واحدة من أهم الحملات التي قصدت بلاد البُجة، قادها عبد الله بن الجهم جدد خلالها المعاهدة التي سبق وعقدها معهم عبيد الله بن الحبحاب، وفي عهد المتوكل العباسي(٢٣٣-٢٤٧هـ/٨٤٧-٨٦١م) قاد محمد بن عبد الله القُمّي حملة كبيرة على بلاد البجة بسبب تكرار إغارتهم على صعيد مصر. راجع: ابن الأثير، مصدر سابق، جـ٦، ص١٢٣-١٢٤؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والأثار، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، ط١، ٢٠٠٣م، جـ١، ص٥٤٩-٥٥١؛ العنزي، طالب جاسم حسن، البُجة واندماجها في الدولة العربية الإسلامية، مجلة الكلية الإسلامية الجامعة، العراق، ٢٠١١، مج٥، ع١٤، ص٣٢-٣٤.

(١٩) المقريزي، المواعظ والاعتبار، جـ١، ص٥٣٨.

(٢٠) معاهدة البقط: نمط فريد في مجال العلاقات الدولية في الإسلام، مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود، السعودية، ١٩٩٥، ع٥، ص٤٧٩-٤٨٢، مسعد، مصطفي، امتداد الإسلام والعروبة إلى وادي النيل الأوسط(مملكة علوة)، المجلة التاريخية المصرية، القاهرة، ١٩٥٩، مج٨، ص٧٠.

(٢١) الكندي، كتاب الولاة وكتاب القضاة، نشرخ: رفن كست، مطبعة الأباء اليسوعيين، بيروت، ط١، ١٩٠٨، ص١٩٣-١٩٤، ٢٠٢.

٢٢() للمزيد حول تلك الحملات والهجرات التي قصدت بلاد السودان راجع: مسعد، مصطفي، البُجة والعرب في العصور الوسطى، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٥٩، مج٢١، ع٢، ص٢٤-٢٦؛ البلال، عصام محمود عثمان، الهجرات العربية لبلاد البُجة(٣-٦هـ/٩-١٢م)، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة اليرموك، الأردن، ١٩٩٧، ص٨٢-٨٧. انظر أيضًا:

Yūsuf Faḍl Ḥasan, Main Aspects of the Arab Migration to the Sudan, Arabica,T. 14, Fasc. 1 (Feb., 1967), pp. 4-31.

(٢٣) الكندي، مصدر سابق، ص١١١، ١٤٣-١٤٦.

(٢٤) ابن الأثير، مصدر سابق، ج٦، ص١٢٣-١٢٤؛ انظر أيضًا: ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط١، ٢٠٠٠، ج٣، ص٢٤٦-٢٤٧.

(٢٥) المقريزي، الخطط، ج١، ص٥٥٤-٥٥٥.

(٢٦) مسعد، مصطفي محمد، الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى، الهيئة المصرية العامه للكتاب، القاهرة، ط١، ٢٠١١، ص١٢٧.

(٢٧) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٨، ج٣، ص١٥٣.

(28) Abdin, A. A, Some General Aspects of the Arabisation of the Sudan. *Sudan Notes and Records*, *40*, 48. 1959, pp. 50-51.

(29) Russell, M. Nubia and Abyssinia: comprehending their civil history, *antiquities, arts, religion, literature, and natural history* (No. 61). J. & J. Harper, New York, 1833, pp. 7-9.

(٣٠)عابدين، عبد المجيد، بين الحبشة والعرب، دار الفكر العربى، القاهرة، ط١، ١٩٤٧، ص١٥٩.

(31) Adejumobi, S. A. The history of Ethiopia. *Greenwood Publishing Group*, London, 2006, p. 6.

(٣٢) الحيمى، سيرة الحبشة، تحقيق مراد كامل، دار العالم العربى، القاهرة، ط١، ١٩٧٢م، ص٤٨. انظر أيضًا:

Grenville, Freeman G. S. P.: Some aspects of the external relations of the East African coast: before 1800," Foreign Relations of African States", edited Ingham, K, University of Bristol, London, 1973, p. 80.

(٣٣) أمين، محمد محمد، علماء زيلع ودورهم فى الحياة الثقافية فى مصر العصور الواسطى, الندوة الدولية للقرن الأفريقي، ١- ٧ يناير، ، معهد الدراسات الأفريقية، القاهرة، ١٩٨٥، ج٢، ص٨٣٤،

(٣٤) ابن حجر، الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد سيد جاد الرب، أم القرى للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، د.ت، ج١، ص٤٤٠-٤٤١؛ السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، تحقيق عبد اللطيف حسن عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م، ج٢، ص٢٨؛ نفس المصدر، ج٦، ص٤٩، ص١٥٤. الجبرتى، عجائب الأثار فى التراجم والأخبار، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣، ج١، ص٣٩٠.

(٣٥) عبد الحليم ، رجب محمد، العلاقات السياسية بين مسلمى الزيلع ونصارى الحبشة فى العصور الوسطى، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٥م، ص٤٠-٤١؛ موقف الحبشة من ممالك الزيلع الإسلامية فى العصور الوسطى، الندوة الدولية للقرن الأفريقى، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، القاهرة، ١٩٨٧م، ج٢، ٦٤٣-٦٤٤.

(٣٦) اليوسفي، نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، تحقيق: أحمد حطيط، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٦، ص٨١.

(٣٧) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ١٩٩٤، ج٥، ط١، ص٤٨٩.

(٣٨) أوضح القلقشندي تقسيم الوظائف خلال العصر المملوكي على النحو التالي: وظائف أرباب السيوف ممن هم بحضرة السلطان، ووظائف أرباب الوظائف الديوانية، ووظائف أرباب الأمور من أرباب السيوف، ووظائف متعلقة بالطعام والشراب، ووظائف متعلقه بإسطبل وحظائر السلطان، ووظائف متعلقة بالنظافة واللباس، ووظائف متعلقة بخدمة الأسرة الحاكمه، ووظائف أخرى خدمية. انظر:، صبح الأعشى، ج٤، ص١٦-٢٢.

(٣٩) السخاوي، الضوء اللامع ، ج٣، ص٤.

(40) Little, D. P. Six Fourteenth Century Purchase Deeds for Slaves from Al-Ḥaram Aš-Šarîf. *Zeitschrift der deutschen morgenländischen Gesellschaft*, 131(2), 1981, pp. 304-305.

(٤١) مقدم ألف: هى صفة أخرى لأمير مائه ويكون في ساحة المعركة مقدم على ألف من العسكر، وقد يقال لصحابها مقدم على ألف أو مقدم الألوف، وقد يضخم أكثر من ذلك فيقال عين مقدمي الألوف، وقد يختصر فيقال المقدم أو الأمير المقدم. انظر الباشا، حسن، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، الدار الفنية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٩٨٩، ق٢، ص٤٨٨. انظر ايضاً

Northrup, L. The Bahri Mamluk Sultanate 1250–1390. *The Cambridge History of Egypt*, Vol. 1, 1998, p.259

(٤٢) ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص١٨٣؛ الدليل الشافي على المنهل الصافي، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٧٩، ج١، ص١٨٣.

(٤٣) البيرة، هنلك عدة مواضع تحمل نفس الاسم منها، البيرة بلد قرب سميساط بين حلب والثغور الرومية، وهي قلعة حصينة ولها مزارع واسعة، والبيرة بين القدس ونابلس، وقد خربها الملك الناصر عندما استنقذها من أيدي الصليبيين، وهناك حصن إلبيرة في بلاد الأندلس. والمقصود بالفتح هنا هي البيرة التي بين حلب والثغور الرومية. انظر: الحموي، مصدر سابق، مج١، ص٥٢٦.

(٤٤) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق: عبد العزيز الخويطر، الرياض، ط١، ١٩٧٦ ص٢٢٨.

(٤٥) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهر، ج٨، ص١٢١.

(٤٦) للمزيد من التفاصيل حول تلك الواقعة راجع: ابن واصل، مفج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيال، (د. ن)، القاهرة، ط١، ١٩٥٣، ج١، ص١٧٤-١٧٧؛ المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، نشره: محمد مصطفى زيادة، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ط٢، ١٩٧٩، ج١. ق١، ص٥٣-٥٤.

(47) Ayalon, D. Studies on the Structure of the Mamluk Army—III. *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, 16(1), 1954, 57-62.

(٤٨) تُعد هذه الوظيفة من أهم الوظائف في البلاط السلطاني خلال العصر المملوكي، وبلغ عدد مقدمي الجند في عهد دولة المماليك الشراكسة نحو أربعة وعشرين أميرًا، يخدم كل واحد منهم مائة مملوك، وهو مقدم على ألف جندي من أجناد الحلقة، ولذا سمّي أمير مائة ومقدم ألف. انظر: ابن شاهين، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، صححه: بولس راويس، المطبعة الجمهورية، باريس، ط١، ١٨٩٣، ص١١٣؛ حجة، هبه محمد ياسين، الصفوة في وصف المملكة المصرية تأليف محمد بن أبي الفتح الصوفي الشافعي المتوفي سنة ٩٥٠هـ/١٥٤٣م دراسة وتحقيق، رسالة ماجستير، جامعة النجاح، فلسطين، ٢٠١٤، ص١٤٤.

وكانت من مهام صاحب هذه الوظيفة توزيع الصدقات والكساوي على المماليك، والنظر في مماليكه كبارهم وصغارهم، وأن يتفقد ما يدخل إليهم من طعام وشراب ويتأكد من سلامته. انظر، القلقشندي، ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر، مطبعة الواعظ، القاهرة، ط١، ١٩٠٦ ص٣٤٣، ابن طولون، نقد الطالب لزَغَل المناصب: تحقيق محمد أحمد دهمان، نزار أباظة، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٩٢، ص٦٩.

(٤٩) الجزري، تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٩٩٨، ج١، ص١٤؛ المختار من تاريخ ابن الجزري، تحقيق: خضير عباس محمد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٨٨ ص٣٣٧؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: نجيب مصطفي فوّاز وحكمت كشلي فوّاز، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٤، ج٣١، ص١١١.

(٥٠) العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق: محمد محمد أمين، دار الكتب والوثائق القومية، ط١، ٢٠٠٩، ج٥، ص١٤.

(٥١) السخاوي، وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، تحقيق: بشار عواد (أخرين)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٥، ج١، ص٢١١، ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفي زيادة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط١، ١٩٨٢، ج١. ق١، ج١. ق٢، ص٥٨٦، ص١٤٥.

(٥٢) بن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١٤،٢٥٧، ٣٤٤؛ الدليل الشافي، ج٢، ٧٧٣.

(٥٣) الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق: حسن حبشى، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ط١، ١٩٧٠، ج٣، ص٣٣؛ السخاوى، الضوء اللامع، ج١٠، ص١٩٨، وجيز الكلام، ج٢، ص٥١٣.

(٥٤) الصيرفي، المصدر السابق، ج٣، ص٢١١.

(٥٥) ابن الجيعان، التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ط١، ١٩٧٤، ص٩٣؛ ابن حجر، إنباء الغمر بأنباء العمر، تحقيق: حسن حبشي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ط١، ١٩٦٩، ج٣، ص٤٣٦، ٤٥٢؛ السخاوى، الضوء اللامع، ج١٠، ص١٩٨؛ أبن إياس، مصدر سابق، ج٢، ص٨٨.

(٥٦) الصيرفي، مصدر سابق، ج٣، ص١٥٤.

(٥٧) الصيرفي، نفس المصدر، ج٣، ص١٦٠.

(٥٨) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٣، ص٤٣٨.

(٥٩) القاضي علم الدين بن الكويز كاتب السر الشريف في عهد الأشرف برسباي، وقد كان يهوديًا في الأصل واعتنق الإسلام. دخل في خدمة السلطان وترقى في المناصب حتى تولى كتابة السر الشريف، وتزوج من ابنة القاضي ناصر الدين بن البارزى الحموى، وتمتع ابن الكويز بنفوذ كبير، وظل في وظيفته إلى أن توفي سنة ٨٢٦هـ/١٤٢٣م، ودفن في تربة كمشبغاي الحموي، وقد حضر جنازته جميع أمراء مصر وأعيانها وقضاتها، وقد خلف ابن الكويز أموال طائلة، وتولى عوضه القاضى جمال الدين ناظر جيش طرابلس، وكان نصرانيًا في الأصل، فكان كما قيل في المعنى

كل يوم إلى ورا بَّدل البول بالخرا

فزمانا تهودا وزمانا تنصرا.

انظر: ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١٤، ص٢٥٥-٢٥٦؛ الصيرفي، مصدر سابق، ج٣، ص٣٩.

(٦٠) للمزيد حول هذه الوظيفة انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٣٠٢، ابن طولون، نقد الطالب، مصدر سابق، ص٦٠، أنظر ايضاً

Northrup, L. Op., Cit., p.261.

(٦١) ابن تغرى برى، النجوم الزاهرة، ج١٥، ص٢٢٣؛ الدليل الشافي، ج١، ص٢٥٤.

(٦٢) الصيرفي، مصدر سابق،ج٣، ص٢٢٤.

(٦٣) السخاوى، الضوء اللامع، ج٣، ص٧٥-٧٦.

(٦٤) الصيرفي، المصدر السابق، ج٣، ص٣٦٢، ٣٧٩-٣٨٠.

(٦٥) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٤، ص٤٦، ١٦٩.

(٦٦) الزمامية أو زمان الدار السلطانية، وهو أكبر الخدام في مقر السلطان، وعادة ما يكون أمير طبلخاناه واللفظ في الأصل زنان وهى كلمة فارسية تعنى النساء ثم دار وهى أيضًا كلمة فارسية تعنى ممسك فيصبح اللفظ كله يعنى ممسك النساء وصاحب هذه الوظيفة هو المتحدث على باب ستارة السلطان. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٣٠٣؛ ضوء الصبح، ص٣٤٤-٣٤٥.

(٦٧) **فيروز الجركس الطواشى الرومى الساقى الزمام** ولى السقاية في دولة الناصر فرج إلى أن نقله الظاهر جقمق إلى وظيفة الزمامية فلم يعمر فيها طويلاً وعزل بسبب هروب الملك العزيز بن الأشرف برسباي من الدور السلطانية، توفي سنة٨٤٨هـ/١٤٤٤م. انظر، ابن تغرى بردى، الدليل الشافي، ج٢، ص٥٢٣؛ النجوم الزاهرة، ج١٥، ص٥٠٦-٥٠٧؛ المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،ط١، د.ت، ج٤، ص٢٨٤؛ السخاوى، الضوء اللامع، ج٦، ص١٥٩.

(٦٨) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٤، ص٤٦، ٤٩، ١١٤.

(٦٩) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١٥، ص٣٤٥، ٤٨٥-٤٨٦، الصيرفي، مصدر سابق، ص٢٧٧.

(٧٠) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٤، ص٨٩.

(٧١) السخاوى، الضوء اللامع، ج٣، ص٧٦.

(٧٢) إنباء العُمر، ج٤، ص١٦٢.

(٧٣) الصيرفي، المصدر السابق، ج٣، ص٣٧٧.

(٧٤) السخاوي، الضوء اللامع، جـ٣/٧٦.

(٧٥) هذا الدرب أصله من خط حارة الديلم، وهو من الدروب القديمة، وقد كان من أكثرها عمرانًا، سكنه عدد من الأعيان وكبار الأمراء، كما سكنه عدد كبير من الديلم و الأتراك؛ نظرًا لقرب حارتي الديلم والأتراك، وفي نهاية الأمر غلب عليه اسم درب الأتراك. ابن عبد الظاهر، الروضة البهية الزاهرة في خطط القاهرة المعزية، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، الدار العربية للكتاب، القاهرة، ط١، ١٩٩٦، ص٢١-٢٢؛ المقريزي، الخطط، ج٢، ص١٣٨، ١٧٥.

(٧٦) السخاوى، الضوء اللامع، ج٣، ص٧٦.

(٧٧) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١٥، ص٤٨٦؛ السخاوى، وجيز الكلام، ج٢، ص٥٧٥.

(٧٨) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١٥، ص٣٤٥؛ الدليل الشافي، ج١، ص٢٥٤؛ السخاوى، الضوء اللامع، ج٣، ص٧٤.

(٧٩) **حِصنُ كَيْفا:** ويقول الحموى تنطق كَيْبا وأظنها أرمينية، وهى بلدة وقلعة عظيمة على نهر دجلة، ولها قنطرة على نهر دجلة لم أر في البلاد التي رأيتها أعظم منها، وهى مدينة من مدن ديار بكر، وتقع بين جزيرة عمر ومدينة ميتافارقين. انظر: الحموي، مصدر سابق، مج٢، ص٢٦٥؛ الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط١، ١٩٧٥ ص٣١٦، أبو الفداء، تقويم البلدان، دار صادر، بيروت، ط١، ١٨٥٠، ص٢٨٠، ٢٨١.

(٨٠) ابن طولون، نقد الطالب، ص١٩١.

(٨١) وهو القائم على حمل الطيور المعدة للصيد من الجوارح وغيرها. انظر: القلقشندي، ضوء الصبح، ص٣٤٥-٣٤٩

(٨٢) ابن طولون، المصدر السابق، ص٦٧، العصفور، سعود محمد، مرجع سابق، ص٣٢٦-٣٢٩.

(٨٣) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١٦، ص١١٧؛ السخاوى، الضوء اللامع، ج١٠، ص١٤١.

(٨٤) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١٦، ص٣١٢؛ الدليل الشافي، ج٢، ص٦٣٢-٧٣٣؛ السخاوى، وجيز الكلام، ج٢، ص٧٤٥؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص١٢٧.

(٨٥) ابن تغرى بردى، الدليل الشافي، ج١، ص٢٤٥.

(٨٦) الضوء اللامع، ج٣، ص٧٧-٧٨.

(٨٧) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٨٠.

(٨٨) **مقدمى الطَّباق:** الطباق هى ثكنات جنود المماليك بالقلعة، وتضـــم كل طبقة منها المماليك المجلوبين من بلد واحد، ويُأمّر على كل طبقة من هذه الطباق مقدم، فعرف هؤلاء المقدمين بإسم مقدمى الطباق، وترجع الطباق لعهد الســـلطان الظاهر بيبرس الذي شـــيدها إلى جانب برج الزاوية المجاور لباب السَّـــر. انظر: المقريزى: الخطط، جـ٣/٦٩١-٦٩٢، دهمان، محمد, مرجع سابق، ص١٠٥.

(٨٩) **فيروز بن عبد اله الرومى الطواشى الركنى** نائب مقدم المماليك السلطانية في دولة الأشرف برسباي ثم شيخ الخدام بالحرم النبوى الشريف، ويوصف بأنه كان كريمًا ومحبًا للتجمل في الملبس، وبرغم ذلك كان متواضعًا، توفي سنة٨٤٨هـ/١٤٤٣م. انظر، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، ج١٥، ص٥٢٣-٥٢٤؛ الدليل الشافي، ج٢، ص٢٥٥؛ السخاوى، الضوء اللامع، ج٦، ص١٦٠.

(٩٠) ابن تغرى بردى، الدليل الشافي، ج١، ص٢٥٥؛ السخاوى، الضوء اللامع، ج٣، ص٧٧.

(٩١) **البَاطِلِيَّة:** عرفت بطائفة يقال لها الباطلية ويرجع اسمها إلى عهد المعز الفاطمى، قال ابن عبد الظاهر كان المعز لما قسم العطاء في الناس جاءت طائفة فسألت عطاء فقيل لهم فرغ ما كان حاضرًا، فقالوا رحنا نحن باطل فسمو "الباطلية" وعرفت هذه الحارة بهم، وقد خربت الباطلية سنة ٦٦٣هـــ/١٢٦٤م بسبب بعض الحرائق التي اتهم فيها النصارى، وظلت خرابًا لفترة طويلة إلى أن عمر الطواشي بهادر داره فيها فعمرت فيها الكثير من المواضـــع. انظر: ابن عبد الظاهر، الروضـــة البهية، ص٤٢، المقريزي، الخطط، ج٣، ص٢١-٢٢.

(٩٢) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١٦، ص٣١٨، السخاوي، الضوء اللامع، ج٦، ص١٣٤.

(٩٣) ابن فهد، إتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق: عبد الكريم على باز، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط١، ١٩٨٨، ج٤، ص٢٤٩.

(٩٤) ابن فهد، إتحاف الورى، ج٤، ص١٦٧؛ السخاوى، الضوء اللامع، ج١٠، ص١٩٧

(٩٥) السخاوى، الضوء اللامع، ج٣، ص٢٣١

(٩٦) **رأس نوبة:** هو الذي يحكم على المماليك الســـلطانيه ويأخذ على أيدهم، وقد جرت العادة أن يكونوا أربعة أمراء في هذه الوظيفة أحدهم يكون مقدم ألف والثلاثة الأخرين أمراء طبلخاناه، ويقال لأكبرهم رأس نوبة النواب. انظر، القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٢٩٧؛ ضوء الصبح، ص٣٤٣؛ دهمان، محمد، مرجع سابق، ص٨١.

(٩٧) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهره، ج١٦، ص٣٤٧-٣٤٨.

(٩٨) السخاوى: الضوء اللامع، جـ٣/٢١٩.

(٩٩) ويذكر ابن طولون أن هذا المنصب من ضمن المناصب التي ابتدعها سلاطين المماليك، ومن واجبات صاحب هذا المنصب ألا يحضر لمخدومه منكرًا يشربه، وأن يحافظ على حقوق سيده، ويحميه من عدوه. انظر: ابن طولون، نقد الطالب، ص٦٦.

(١٠٠) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٤٢٢؛ العصفور، سعود محمد، مرجع سابق، ص٣٣١.

(١٠١) بدائع الزهور، ج٣، ص٢٧٤.

(١٠٢) **شاد الحوش:** ويقال شدَّ الدواوين أى فتشها وضبط حساباتها، وتضاف الكلمة لاسم الوظيفة فيقال شاد الحوش، وشاد الزكاة، وشاد الأوقاف أى مديرها، وشاد الشوانى وهو قائد الأسطول والمسئول عنه، ويطلق على هذه الوظيفة عمومًا لفظ "شادّية". انظر: دهمان، محمد أحمد، مرجع سابق، ص٩٥.

(١٠٣) السخاوى، الضوء اللامع، ج١٠، ص١٤٩.

(١٠٤) خوند، لفظ فارسي استعمل في اللغة التركية ومعناه السيد أو الأمير، ويخاطب به المذكر والمؤنث. انظر القلقشندي، صبح الاعشى، ج٦، ص٧٧-٧٨، دهمان، محمد أحمد: مرجع سابق، ص٧٠.

(١٠٥) الضوء اللامع، ج٣، ص٢١٩.

(١٠٦) **بجمقدار:** هو الذي يحمل نعل السلطان أو الأمير، ولفظ بجمقدار قد يقال بشمدار أو بجمقدار، وهو مركب من لفظين أحدهما تركي وهو بشمق أو بصمق ومعناه النعل، واللفظ الآخر فارسي، وهو دار ومعناها ممسك. انظر: القلقشندي، ضوء الصبح، ص٣٤٤، ابن طولون، نقد الطالب، ص٦٥. انظر أيضاً:

- Ayalon, David, Op., Cit., pp. 213-216

(١٠٧) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٧.

(١٠٨) عبد القادر، سالمة محمود، شيوخ خدام الحرم النبوي في كتاب نصيحة المشاور وتعزية المجاور لابن فرحون(ت٧٦٩هـ/١٣٦٧م)، مجلة جامعة كركوك للعلوم الإنسانية، كركوك، ٢٠١٨، مج١٣، ع١، ص٤١.

(١٠٩) سعود، محمد العصفور، مرجع سابق، ص٣١٥.

(١١٠) السخاوى، الضوء اللامع، ج١٠، ص١٤٤.

(١١١) السخاوى، الضوء اللامع، ج٣، ص٧٤.

(١١٢) السخاوى، التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، نشره: أسعد طرابزوني الحسيني، مطبعة دار نشر الثقافة، القاهرة، ط١، ١٩٧٩، ج١، ص٤٣٦-٤٣٧.

(١١٣) **جمداراً =جاما دار:** الجمي هي البقجة باللغة العجمية، ودار تعنى ماسك أي أن اللفظ يعنى ماسك البقجة التي للقماش، وصاحبها هو المختص بإلباس السلطان أو الأمير ثيابه، وكانت مكانة الجمدار لدى السلطان تمكنه من الاطلاع على كافة أمور السلطان السرية، فيذكر ابن إياس في حوادث سنة٧٦٢هـ/ ١٣٦٠م، عندما أراد السلطان الناصر حسن أن يكبس على يلبغا في مخيمه، فأرسل إليه بشير الجمدار يخبره بنية السلطان. انظر: القلقشندي، ضوء الصبح، ص٣٤٤، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٨٥؛ ابن طولون، نقد الطالب، ص٦٥؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٥٧٦.

(١١٤) السخاوى، الضوء اللامع، ج٣، ص٢١٩؛ وجيز الكلام، ج٢، ص٨٠٨.

(١١٥) السخاوى، الضوء اللامع، ج١١، ص١٤١؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص٣١.

(١١٦) رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، ط١، د.ت، ص١٧١-١٧٢.

(١١٧) ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق: عبد الهادي التازي، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ط١، ١٩٩٧، ج١، ص٣٥٧.

(١١٨) عبد القادر، سالمة محمود، مرجع سابق، ٤٤-٤٥.

(١١٩) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٦٠.

(١٢٠) الفاسي، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق: محمد حامد الفقي، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٦٢، ج٤، ص٤٢٥.

(١٢١) الفاسي، نفس المصدر، ج٣، ص٣٨٠.

(١٢٢) التحفة اللطيفة، ج٢، ص٤٤١.

(١٢٣) السخاوي، التحفة اللطيفة، ج١، ص٤٣٦-٤٣٧.

(١٢٤) العصفور، سعود محمد، مرجع سابق، ص٣٣٦.

(١٢٥) **اللالا:** لفظ فارسي يعنى الشخص المكلف بالعناية بالأطفال والجمع لالات، ومن عادة اللالات ألا يظهروا الأولاد للناس إلا بعد أن يتجاوز سن الواحد منهم سبع سنوات. انظر، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١٥، ص٧٢؛ المقريزي، السلوك، ج١، ص٤١٨؛ ابن شاهين، مصدر سابق، ص١١١.

(١٢٦) الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٩، ١٩٩٣، ج١٧، ص٢٩٩، ج١٩، ص٤٨.

(١٢٧) ابن حجر، إنباء الغمر، ج١، ص٣٨٠.

(١٢٨) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١٤، ص٣٢٢؛ ابن حجر، إنباء الغمر، ج١٢٢/٤.

(١٢٩) الصيرفي، مصدر سابق، ج٣، ص٤١٨-٤٢٢.

(١٣٠) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١٥، ص٤٦٥-٤٦٦، ٤٨٦؛ السخاوى، التبر المسبوك في ذيل السلوك، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، د ت، ج٣، ص٧٦ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص١٩٩.

(١٣١) السخاوى، الضوء اللامع، ج١٠، ص١٥٤.

(١٣٢) ابن فهد، إتحاف الورى، ج٤، ص١٦٧.

(١٣٣) ابن تغرى بردى، المنهل الصافي، ج٤، ص٢٨٩؛ السخاوى، الضوء اللامع، ج١٠، ص١٩٩.

(١٣٤) ابن تغرى بردى، المنهل الصافي، ج٤، ص٢٨٨، ٢٩١، ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص٢٠٩، ٢١٣.

(١٣٥) بدائع الزهور، ج٢، ص٨٠.

(١٣٦) ابن فهد، معجم الشيوخ، تحقيق: محمد الزاهي، دار اليمامة للطباعة والنشر، الرياض، ط١، ١٩٨٢، ص٢٤٠؛ ابن حجر، مصدر سابق، ج٣، ص٤٤٠.

(١٣٧) **مهتار الطشخاناه:** مهتار الطشت خاناه هو رئيس غلمان بيت الطشت في عصر المماليك، وهم المسؤلون عن سائر الملابس والفرش والسجاجيد والمقاعد التي يستخدمها السلطان. للمزيد انظر، القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص١٠-١١؛ ضوء الصبح، ص٣٤٩، ابن طولون، نقد الطالب، ص١٨٦.

(١٣٨) الضوء اللامع، ج١٠، ص١٤٦.

(١٣٩) الفاسي، العقد الثمين، ج٨، ص٩.

(١٤٠) السخاوي، التحفة اللطيفة، ج٢، ص٤٠-٤٣.

(١٤١) السخاوى، نفس المصدر، ج١١، ص٩٤.

(١٤٢) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٢، ص١١٧.

(١٤٣) ابن فهد، الدر الكمين بذيل العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق عبد الملك بن عبد العزيز دهيس، ط١، دار خضر، بيروت، ط١، ٢٠٠٠، ج٢، ص١١٧٠.

(١٤٤) ابن فهد، الدر الكمين، ج١، ص٦٥٥-٦٥٦.

(١٤٥) الضوء اللامع، ج٣، ص٨٢.

(١٤٦) السخاوى، الضوء اللامع، ج٣، ص٢٣١.

(١٤٧) الفاسي، مصدر سابق، ج٣، ص٣٢٥، ٣٤٥.

(١٤٨) الفاسي، نفس المصدر، ج٢، ص٤١٤؛ ج٤، ص٥٨٩؛ ج٧، ٤٢٦.

(١٤٩) الفاسي، نفس المصدر، ج٦، ص١٤٤-١٤٧.

(١٥٠) السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط١، ١٩٦٧، ج٢ ص٥٢٥.

(١٥١) الفاسي،مصدر سابق، ج٨، ص٢٧-٢٨.

(١٥٢) التحفة اللطيفة، ج١، ص١٢٥-١٥٣، ٣٢٣؛ ج٣، ص٤٦-٤٧، ٣٦٧.

(١٥٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص١١٧.

(١٥٤) السخاوى، الضوء اللامع، ج٣، ص١٦.

(١٥٥) السخاوي، نفس المصدر والجزء، ص١٦-١٧.

(١٥٦) لم يذكر السخاوي عند أي السلاطين خدم بدر الحبشي، كما لم يذكر لا تاريخ وفاة سيده جمال الدن المغربي ولا تاريخ وفاته.

(١٥٧) السخاوى، الضوء اللامع، ج٣، ص٣.

(١٥٨) السخاوى، الضوء اللامع، ج٣، ص٨٢.

(١٥٩) عبد العزيز، علاء الدين، جنسيات زوجات سلاطين المماليك البحرية ودورهن السياسي والحضارى(٦٤٨-٧٨٤هـ/١٢٥٠-١٣٣٨م)، مجلة رسالة المشرق، مركز الدراسات الشرقية، جامعة القاهرة، ٢٠٠٨، مج٢٢، ع٣-٤، ٥٤٠.

(١٦٠) عبد العزيز، علاء الدين ، نفس المرجع، ص٥٣٥.

(١٦١) ابن الجوزي، مصدر سابق، ص٤٥-٤٧.

(١٦٢) ابن الجوزي، نفس المصدر، ص٤٠؛ السيوطي، رفع شأن الحبشان، ص٣٦٥.

(١٦٣) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تحقيق: خليل شحادة، ط١، دار الفكر، بيروت، ط١، ٢٠٠١، ص١٠٨.

(١٦٤) السيوطي، رفع شأن الحبشان، ص٣٦٦.

(١٦٥) عز الدين الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، بيروت، ط١، ١٩٨٦، ج٨، ص٢٥٥.

(١٦٦) ابن فهد، الدر الكمين، ج٣، ص١٤٨١-١٤٨٢، ١٥١٩، ١٥٤٦؛ السخاوى، الضوء اللامع، ج١٢، ص٧٠-٧١، ١١٢، ١٢٥.

(١٦٧) ابن فهد(١٩٨٢)، معجم الشيوخ، ص٣٢١.

(١٦٨) ابن فهد، إتحاف الورى، ج٤، ص١٢٥؛ الدر الكمين، ج٢، ص١٤٣٠؛ السخاوى، الضوء اللامع، ج١٢، ص٣٣.

(١٦٩) السخاوى، الضوء اللامع، ج١٢، ص١٦.

(١٧٠) ابن فهد، إتحاف الورى، ج٤، ص٤٢١؛ الدر الكمين، ج٢، ص١٤٦٨؛ السخاوى، الضوء اللامع، ج١٢، ص٦٥

(١٧١) السخاوى، الضوء اللامع، ج١٢، ص١٢٢.

(١٧٢) السخاوى، الضوء اللامع، ج١٢، ص٣٣.

(١٧٣) السخاوى: الضوء اللامع، ج٢، ص٣٥، ٦٢، ٦٩.

(١٧٤) ابن فهد، معجم الشيوخ، ٤٠٧؛ الدر الكمين، ج٣، ص١٥٦٤-١٥٦٥؛ السخاوى، الضوء اللامع، ج١٢، ص١٣٣

(١٧٥) السخاوى: الضوء اللامع، ج١٢، ص١٧.

(١٧٦) السخاوى: وجيز الكلام، ج٢، ص٦٠٠-٦٠١.

(١٧٧) السخاوى: الضوء اللامع، ج٣، ص١٠٠٣-١٠٠٤.